Ibn Al qaisarani's literary contributions to fight against crusades

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirement of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

Mujeeb.B

Under the Supervision of

Prof. F.U.Farooqi

Centre of Arabic and African Studies

School of language, literature and cultural studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi - India 110067

2012

مساهمة ابن القيسراني الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية

أطروحة جامعية قدمت إلى جامعة جوهرلال نهرو نيودلهي لنيل الشهادة ما قبل الدكتوره

من

مجيب . بي

تحت إشراف

فضيلة الشيخ الدكتور فيضان الله الفاروقي

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جوهرلال نهرو، نيو دلهي ، الهند - 110067

2012

Declaration

I declare that the dissertation "Ibn Al qaisarani's literary contributions to fight against crusades" is in partial fulfillment of the requirement of the award of the degree of Master of Philosophy of this university. The work provided in this dissertation, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Mujeeb.B

(Research scholar)

Prof. A. Basheer Ahmad

(chairperson)

Prof. F.U. Farooqi

(Supervisor)

الإهداء

إلى والدي الحبيبين

اللذين أكرماني بعظم دعوتهما الخالدة

وإلى إخواني وأخواتي

اصحاب الخير والعطاء والرحمة

وإلى كل من يستضعف في كل أصقاء المعمورة

وإلى كل من يعشق لغة الضاد

أهدي هذا العمل المتواضع

مجيب . بي

الشكر والتقدير

أتقدم جزيل الشكر والتقدير من أعماق قلبي إلى كل من مد لي يد العون والمساعدة من الأساتذة والأصدقاء والأحباء بقدر إمكانيتهم وحسب مستطاعتهم لإنجاز هذه الدراسة .

وأخص بالذكر :

أستاذي ومشرفي فضيلة الدكتور فيضان الله الفاروقي الذي تولى مسؤولية الإشراف ولولا تعاونه الكبير وكرمه الواسع لما أنجزت هذا العمل ، وأدعو الله تعالى أن يجزيه جزاءَ حسنا في الدنيا والآخرة .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	
الشكر والتقدير	
فهرس المحتويات	
المقدمة	1
الفصل الأول : موجز تاريخ الحروب الصليبية في بلدان العربية	5
الحروب الصليبية	6
الأسباب الدينية	6
الأسباب التجارية	6
الأسباب السياسية	7
حالة الشرق الإسلامي عند بداية الحروب الصليبية	7
في الشام	8
في مصر	13
الفصل الثاني : نشأته وحياته ورحلاته في مختلف أصقاء بلدان الإسلامية	15
مراحل حياته	16
اسمه	16
لقبه	16
كنيته	16
نسبته	16
مولده	17
الرحلة من عكا إلى قيسارية	17
في قيسارية	17
في دمشق	18
رحلته إلى العراق وعودته إلى دمشق	19

في حلب 20
في أنطاكية 21
في ظل نور الدين 21
اختلافاته بالشاعر ابن منير الطرابلسي 25
وفادته على مجير الدين في دمشق 26
صلات أخرى بممدوحين آخرين 27
مرضه ووفاته 28
الفصل الثالث : آثاره الأدبية وأنواعها ومواضيعها 30
ثقافته 31
آثاره الأدبية 31
الثغريات 32
شخصيته الشعرية 38
مصادر الصورة التراثية في أشعاره 39
1- أحداث وقصص تاريخية 40
2- توظيف الشخصيات التاريخية 41
3- استحضار معاني السابقين وصورهم 42
4- الطبيعة 44
أولا : الطبيعة الصامتة 44
ثانيا: الطبيعة الحية 45
مصادر الصورة الدينية 46
1- القرآن الكريم 47
2- الحديث الشريف 48
3- الدين النصراني 50
الفصل الرابع : مساهمته الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية 52
تقسيم شعره من حيث الموضوع
الأول : الإتجاه الفردي 53
الثاني : الإتجاه العام 53
تدخلات ابن القيسراني الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية
1- مع تاج الملوك بوري بن طغتكين 54
2- مع عماد الدين زنكي :
فتح حصن بارين ، سنة 534 هـ 58
فتح الرها ، سنة 539 هـ 61
مدح القاضي كمال الدين الشهرزوري مُهنئا بفتح الرها 64

مدح جمال الدين ، وزير الدولة الأتابكة بالموصل بفتح الرها 65
3- مع نورالدين محمود زنكي :
فتح يَغرى ، سنة 543 هـ 69
فتح إنب ، سنة 544 هـ 71
وقد قال ابن القيسراني قصيدة ثانية أشار فيها إلى انتصار نورالدين في إنّب ، أنشده أياها بظاهر حلب . 75
انتصاره على جوسلين ، سنة 545 هـ 77
مدحه على الموافقة بين مجير الدين ونور الدين في الدمشق سنة 546 هـ 81
ما قال عنه النقاد في شعره 85
الخاتمة 86
المصادر والمراجع 88

مقدمة :-

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فقد شهد الشرق الأوسط في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، حركة استعمارية من قبل الغرب ، لم يشهد لها مثيلا في العصورالوسطى ، واتخذت من الدين ستارا لإخفاء ما تنطوي عليه من المطامع والاغراض ، وتتمثل هذه الحركة فيما هو معروف بالحرب الصليبية ، وترجع بوادرها إلى القرن العاشرالميلادي حين ظهرت في غرب اوروبا حركة دينية ، اشتهرت باسم حركة الكلونية ، نسبة إلى دير كلوني في برجنديا .

اختلف المؤرخون في نظرهم إلى الحروب الصليبية ، فمنهم من رأى فيها حملات دينية صرفا ، دعت إليها البابوية واستجابت لها الشعوب الأوربية ما بين جرمانية الشمالية وإفرنجية وإيطالية عن اقتناع فحسب ، بوجوب انتزاع " بيت المقدس " وتخليص " قبر المسيح " والاستيلاء على الأراضي المقدسة في سورية وفلسطين تسهيلا للطريق أمام الحجاج من أهل الغرب ، ليقوموا بشعائر الدين . ومنهم من رأى فيها حملات هوجاء وكأنها بجملتها حدث غريب نبا عن مجموع مظاهر التطور العام .

أيا ما كان ، تركت هذه الحروب الصليبية آثارا بارزة على المسلمين سياسية واجتماعية وثقافية ، وقد أدت أحداث هذه الحروب إلى بروز شعر العربي لإشعال مشاعر المسلمين ضد الصليبيين ، والشعراء المسلمون في هذا العصر لعبوا دورا بارزا في انتصار هذه الحروب الضروس التي شنت المسلمون والصليبيون بدم بارد معا . وبما كانت للشعر مكانة مرموقة بين العرب المسلمين منذ أمد بعيد في اشعال الحروب واطفاءها من الطبيعي ان يلعب الشعرالصليبي دورها الريادي في هذه العصور، هناك كثيرمن الشعراء الذين استطاعوا إثارة حمية المجاهدين ضد القوى الاستعماري بإثارة عواطفهم الدينية والوطنية ، استعملوا كل أنواع من الشعركالمدح والهجاء والحماسة وصف المعارك والرثاء...الخ لنيل غرضهم ، وبالجملة لا يستطيع لأحد منا انكاردورهم في انتصار هذه الحروب .

وإذا كان هذا العصرقد شاهد طائفة من الحكام والملوك والسلاطين أحاطوا أنفسهم أوأحاط بهم جماعة من الشعراء ، كعماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين ، وملك الكامل ، والظاهر بيبرس ، والأشرف ، ممن أسبغوا العرف على الشعراء ، فكثروا بجوارهم ، حتى عرفت لبعض هؤلاء الحكام زهاء خمسين شاعرا ، فقد رأى هذا العصر كذلك بعض الأسر،التي تداول أبناءها حماية الشعراء وتقريبهم ، والإغداق عليهم ، وأشهر هذه الأسر اسرة بني الكنز ، وهم أمراء اصائل من ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ، ممدوحون ، مقصودون من البلاد الشاسعة ، والأماكن المتباعدة ، صنع لهم الفاضل السديد أبوالحسن علي بن عرام سيرة ، ذكر مناقبهم ، وحالهم ، وجمع أسماء من مدحهم من أهل الثغر (يريد أسوان) ومن ورد عليهم

ومن معظم الشعراء في هذا العصر :- العماد الأصفهاني ، مجد الدين بن الظهير الاربلي ، وجيه بن عبدالله التنوخي ، ابو المظفرالأبيوردي ، ابن الخياط ، الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزيرالمصري ، أسامة بن منقذ ،محمودبن سليمان الحلبي ، ابن قسيم الحموي ، ابن منير الطرابلسي ، ابو يعلى القلانسي ، ابن القيسراني ، شهاب الدين ابو يوسف يعقوب بن المجاور ، المهذب بن زبير ، ابن الساعاتي ، ظافر الحداد ، العرقلة ، وابن النبيه وغيرهم .

من هؤلاء الشعراء من اتخذوا الشعر حرفة لهم ، يعيشون على ما يدره عليهم من رزق قليل أو كثير ، كالقيسراني ، وابن منير، والعرقلة ، وابن النبيه ، ومن شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجول في أنفسهم ، من إحساسات وعواطف لا يريدون على شعرهم مالا ، ولا جزاءا ، كالشعراء من الملوك ، والأمراء ، والوزراء ، ورجال التصوف .

من أهم أنواع الشعر الصليبي في هذا العصر:-

- الدعوة إلى الجهاد .
- وصف المعارك .
- المديح .
- الهجاء .
- الرثاء .

الشعراء في هذا العصرالذين كان لهم الأثرالواضح في تسجيل أحداث تلك الحقبة ، وقد وقف كثيرمن الأدباء والنقاد عند شعرهم بالدراسة والتحليل ، ولعل ابن القيسراني واحد من اولئك الشعراء الذين تحدثت عنهم كتب الأدب والنقد والتراجم ، وأشادت بشاعريته ، وقدرته الفنية ، وقد اهتم ابن القيسراني بصورته الفنية ، فتميزت عنده .

عندما نحن نبحث عن ابن القيسراني خصوصا نراه يشارك في كل أنواع من الشعر تقريبا في هذا العصر حتى الغزل والتشبيب والخمريات ووصف الطبيعة ووصف النساء المسيحية المتعبدات ووصف الكنائس والدير دون ما ذكرنا من انواع الشعر في هذا العصر. وكان هوعبقريا كبيرا وشاعرا موهوبا ، مجيدا في أكثر شعره ، واضح الغرض ، بعيد الخيال ، لا يستغلق ، ولا يبهم ، تجوّل في كل أصقاء من البلدان الإسلامية مثل الشام والعراق ومصر وغيرها ، وكان له مكانة عظيمة عند الملوك في هذا العصرحتى كان كاتم سرعماد الدين الزنكي ونور الدين محمود.

ما حصل المؤرخون على قصيدة أو مقطعة قالها ابن القيسراني في الرثاء مع وفرة اتصالاته بالممدوحين والأدباء ، نحن لا نعلم هل كان عاجزا عن قول المراثي ؟ أم قالها ولم يصلنا منها شيئ ؟ أم كان متحجر العاطفة لا يهز موت ممدوح أغدق عليه ماله وعطفه في حياته ، فانتهت صلته به عند مماته ؟ وهذا الافتراض الثالث نستبعد صحته ، إذ أننا نلمس عكسه في تدفق عاطفته وحنينه الجارف في كثير من المقاطاته الشعرية ، وفيها من الصدق ما يوحي بأن ابن القيسراني شديد التعلق بالأشياء إذا ما ارتبطت بحياته بسبب أو بآخر . وكذلك في الهجاء الذي

توحي لنا بأن ابن القيسراني قال منه الشيئ الكثير ، ولكن ليس بين أيدينا منه شيئ بأسباب مذكورة من قبل .

وقد وجدت بعض الدراسات السابقة التي تناولت حياة وشخصية وأشعارابن القيسراني مع دقة وتوضيح ، وجديربالذكر هنا دراسة محمود إبراهيم ، سنة 1988 م ، وهي بعنوان **: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني** ، وهذه الدراسة موزعة على ثلاثة فصول ، تحدث الدكتور محمود في أولها عن حياة ابن القيسراني ، وشخصيته ، وهجرته عن موطنه ، ووفائه له في أثناء محنته ، وما احتمل من الجهد والعسر والمشقة ، وجهاد المدينتين الكبيرتين : دمشق وحلب للصليبيين ، وكيف كان عماد الدين زنكي وابنه ينظمان هذا الجهاد مصبحين وممسيين فيحسنان تنظيمه إلى أبعد حد وكيف كانا يبليان فيه أعظم البلاء ، ويحدثنا عن أشعار ابن القيسراني ومصادرها ملاحظ كثرة ما فقد منها وسقط من يد الزمن .

ويلاحظ الدكتور محمود في فاتحة الفصل الثاني غياب شعر الحنين إلى الوطن عند ابن القيسراني وكأنما وجد الشاعر في هذا الحنين مايؤذي نفسه الصلبة وقد أصابت وطنه كارثة خطيرة ، فلم يلم به ، إذ رصد نفسه وشعره لنضال قوى البغي والعدوان نضالا مستميتا ، وقد مضى يصور معارك عماد الدين وكيف كان يسحق جموع الصليبيين سحقا ، وصور وقائع نور الدين وضرباته القاصمة لهم ، وصحح الدكتور ما دخل على بعض المؤرخين القدماء والمعاصرين من لبس في تاريخ بعض القصائد الحربية من نظمت فيهم ، وأفرد صفحات طريفة لما دعا إليه الشاعر من وحدة الصف العربي ، ولفته عنده أشعار نظنه في راهبات أنطاكية ، ولعله نظمها تندير ودعابة .

ووضع الدكتور محمود في الفصل الثالث شعر ابن القيسراني في الميزان ، مصور جانبين فيه : هما الدور الوظيفي والأداء الفني ، وقد عرض في الدور الوظيفي شعره الحربي ، ملاحظ نقصه الواضح في التحديد الدقيق للمعارك ومعالمها الحربية ، لما طبع به من طوابع غنائية ، قوامها الحماسة الدينية والدعوة إلى جهاد أعداء الدين الحنيف واستنعاض العزائم لرد الديار المقدسة ودحر الصليبيين دحرا لا تقوم لهم قائمة من بعده ، وهو ما جعل ابن القيسراني يحشد في هذا الشعر كلما يستطيع من ألفاظ رنانة ضخمة مستطيلة ، حتى تكون لها قعقعة ودويه ، وحتى تبلغ من التأثير في النفوس كل مبلغ .

ولكني اخترت الموضوع مساهمته الأدبية في المقاومة الحروب الصليبية فقط لهذه الدراسة ، لا سيما مساهمته المباشرة في هذه المقاومة ، عند ما وقعت فتوحات هامة في عصره تناول الشاعر بمواهبه الشعرية الجلية هذه الأخطار بدقة ومهارة ، وأناقش عن الوقائع الهامة في عصره مثل فتح حصن *بارين والرُّها ويَغرى وإنّب* وخسران *جوسلين* ومدحه الأمراء آنذاك ، وشتم الفرنج واستهزاءه بهم في كثرة عدد المقتولين ، واتحلل قصائده المتعلقة بمواضيع مذكورة آنفا ، مع شرح قصيدته وإبراز بعض عناصر البلاغية وتصوير الفنية فيها ، ما حاولت أن أناقش تدخلاته الأدبية غير مباشرة لخوف من طول البحث .

ما شاهدت في جامعاتنا الهندية دراسة شاملة عن شعراء الحروب الصليبية وعن آدابهم وعن اغراضهم وعن أساليبهم...الخ ، فالطبيعي أن يكون مستحيلا أن يوجد دراسة عن شعرابن

القيسراني ، ولذاهذاالشاعرالمشهوريقوم مخمولابين الطلاب اللغة العربية الهندية غبرقرون ، هذه هي محاولة صغيرة لإزالة هذه الخمولة .

وتتكون هذه الدراسة من مقدمة ، وأربعة فصول ، والمصادر والمراجع ، وقد تناول المقدمة تذكارا موجزاعن الحروب الصليبية ، والشعراء المشهورفي هذا العصر ، وأهم أنواع الشعر، ودراسة التي قد مضت من قبل في هذا الموضوع حول هذا الشاعر ،

وتناول الفصل الأول موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق ، أسبابها الدينية والتجارية والسياسية ، حالة الشرق الإسلامي عند بداية الحروب الصليبية في الشام ومصر .

والفصل الثاني عن مراحل حياته ونشأته ورحلاته مع بعض النماذج الشعرية التي ألفتها في بين رحلاته .

والفصل الثالث آثاره الأدبية وأغراضها وأنواعها ، مع النماذج الشعرية ، ومصادر الصورة التراثية في أشعاره ...الخ .

وتناول الفصل الرابع مساهمته الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية ، مع شرح قصيدته ، وإبراز بعض عناصر البلاغية .

وبعد ، فأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا إلى ما فيه من خير ، إنه وليّ ذلك ، والقادر على كل شيئ .

الفصل الأول

موجز تاريخ الحروب الصليبية في بلدان العربية

الحروب الصليبية : -

اتفق معظم الباحثين على تعريف الحروب الصليبية بانها " حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخدت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين ، وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها ، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والإجتماعية والإقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين شعارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق " .[1]

ولقد كان الهدف من غزو الصليبيين للشرق الإسلامي احتلال بيت المقدس ، والحد من الزحف الإسلامي الذي كان يغزو العالم [2] ، وقد اتخذت هذه الحركة الصبغة الدينية سواء بالنسبة للمسلمين أوالصليبيين . [3]

وقد اتفق اكثر المؤرخين كذلك على الأسباب التي حملت الصليبيين على غزو الشرق الإسلامي ، وهي أسباب عديدة ، أهمها :

1- الأسباب الدينية : -

كان الحجاج الذين يفدون إلى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح والأماكن المقدسة يلاقون معاملة طيبة من الحكام المسلمين ، فلما جاء التركمان ، وحكموا البيت المقدس ، عاملوا هؤلاء الزوار بغلاظة وقسوة ، وقد تأثر البابا (إربان الثاني) بهذه المعاملة ، لا سيما وأنها صورت له أكثر من حقيقتها ، فقام بالدعوة إلى غزو بلاد المسلمين ، وأخذ بيت المقدس .

وقد اغتنم البابا الفرصة اجتماع المجمع الديني الكبيرالذي التأم في مدينة كليرمون ، وخصره ألوف من الفرسان ، ليحرض المؤمنين من النصارى على حمل الصليب ، لفتح القبر المقدس ، فوعده جمهوركبيرمن جميع طبقات الشعوب أن يرحلوا إلى فلسطين ، ووعدهم البابا بالغفران التام ، وتوعد كل من يمس أموالهم في أثناء سفرهم .

وقد استغل بعض النصارى ضعف المسلمين آنذاك ، وتفرقهم فحاولوا إيقاظ الشعور العدائي عند النصارى تجاه المسلمين ، واتخذوا من الأماكن المقدسة هدفا لهذه الدعوة . [4]

2- الأسباب التجارية :-

حرص تجارالعرب على إيجاد موانيء تجارة لهم في بلادالشرق على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط ، كى تتصل أوربا عن طريق هذه الموانيء ببلاد المسلمين الشرقية ، فبذل هؤلاء التجار أموالا طائلة للتشجيع على تلك الحروب ، والدعوة لها .

---

[1] الحركة الصليبية : ج 1 ص 26
[2] صلاح الدين بطل حطين : ص 59 ، وتاريخ العصور الوسطى في أوربا : ص 482
[3] الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : ص 1
[4] التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية : ج 5 ص 407

ومن الدلائل البارزة على تغلب العنصر التجاري عند المحاربين أنهم حينما احتلوا مدينة دمياط في الحملة الخامسة ، عرض عليهم الملك الكامل أن يعطيهم بيت المقدس ، ومعظم مدن فلسطين ، مقابل تركهم لدمياط والمدن الساحلية في مصر ، ولكنهم رفضوا هذا العرض ، " ولو كان غرضهم دينيا فقط ماترددوا في قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس ، وغيرهامن المدن المتصلة بأصول الديانةالمسيحية ، وهي المدن التي قامت الحروب الصليبية من أجلها بادعاء المنادين لها " . [1]

3- الأسباب السياسية :-

كان السلاجقة الاتراك يحكمون بلاد الشام ، وقد ضايق الأمير السلجوقي (برسق) امراطور الروم (الكسيوس) واضطره إلى دفع جزية لسلطان المسلمين مقدارها ثلاث مائة ألف دينار سنويا ، وثلاثين ألف دينار يأخذها هو كل عام كذلك ، فأرسل الإمراطور رسلا إلى البابا (إربان الثاني) يطلب مساعدته بشكل عاجل ، وكان مما قاله للبابا في رسالته : " إن من الحكمة أن يحارب الأتراك في أرض آسية بدل أن تنتظر هم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية " . [2]

وفي سبيل توحيدالكنيستين الشرقية والغربية تحت سيطرته استيجاب البابا لهذا الطلب ، ودعا إلى الحرب الصليبية ضد المسلمين . [3]

حالة الشرق الإسلامي عند بداية الحروب الصليبية : -

وجدت أنه من الضروري إعطاء فكرة موجزة عن أحوال المسلمين عند بداية الغزوات الصليبية ، وذلك كي تتضح الأسباب التي جعلت الصليبيين ينتصرون على المسلمين في بداية هذه المعارك دون مقاومة تذكر .

كانت عوامل الضعف والانحلال تنخر في جسم الأمة الإسلامية ، كما أن اختلاف الحكام وتفرقهم كان من أقوى الأسباب التي ادت إلى هزيمة المسلمين .

ففي بغدادكان مركزالخلافة العباسية السنية ، وقد سيطرالأتراك السلاجقة على الخليفة ،ولم يكن له سوى السلطة الإسمية فقط ، وفي القاهرة كان مركزالخلافة الفاطمية الشيعية ، وكانت هذه الخلافة ضعيفة جدا ، يدير الأمرفيها الوزراء والأمراء ، ولايسعون الا في مصالحهم الذاتية .

وكان الخلاف على أشده بين هاتين الخلافتين ، وسعى كل خليفة لأخذ ما يستطيعه من بلاد الآخر [4] ، وحتى داخل الخلافة نفسها كان هناك صراع مستمر بين الأمراء .

---

[1] الحركة الصليبية : ج 1 ص 28 - 46
[2] قصة الحضارة : ج 4 ص 11
[3] أثر المدينة الإسلامية في الحضارة الغربية : ص 171
[4] الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها ، ص 253

أما بلاد الشام فكانت منقسمة على نفسها ، فدمشق يحكمها رضوان بن تتش بن ألب أرسلان ، وبيت المقدس يحكمه نعمان بن أرتق التركماني ، وأنطاكية يحكمها باغسيان التركماني [1] ، ولم يكن لأحدهم علاقة بالآخر ، اللهم إلا علاقة العداء والكراهية ، ومحاولة الاستيلاء على أرض غيره .

ولم يكن نجاح الصليبيين في اول الأمر إلا بسبب تفكك المسلمين ، وحالة الفوضى التي كانت سائدة آنذاك .

وليس أدل على تفكك المسلمين وبعدهم عن منابع عقيدتهم ، ما ذكره ابن جبير في رحلته ، من انه شاهد المسلمين الواقعين تحت حكم الصليبيين يعاملون معاملة افضل من معاملة المسلمين الواقعين تحت حكم إخوانهم المسلمين ، " هذه الفجا ئع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعدله ، فإلى الله المشتكي من هذه الحال " [2]

وساستعرض بإيجاز أهم إحداث هذه الحروب في بلاد الشام ومصر.

1- في الشام :-

دخل الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان عام اثنين وتسعين وأربعمائة للهجرة بعد حصار طويل ، وقد فعل هؤلاء الغزاة بالمسلمين أفعالا شنيعة ، دلت على مقدار حقدهم الهائل على المسلمين ، قال ابن الأثير في وصف المذبحة التي أحدثها الصليبيون : " وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا ، منهم جماعة كبيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ، ممن فارق الأوطان ، وجاوربذلك الموضع الشريف "[3]

وقدروى (ول ديورانت)عن شاهد عيان أنه قال :"إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ، ويقذف بهم من فوق الاسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها في العمد ، وذبح سبعون الفا من المسلمين الذين بقوا في المدينة " [4] ، وبلغ من حقد الصليبيين انهم انطلقوا إلى المساجد والمنازل والشوارع يقتلون كل من يصادفهم دون تمييز . [5]

استمر المسلمون على ضعفهم حتى ظهر عماد الدين زنكي ، فالتفوا حوله ، وثارت حميتهم ، واشتدت حماستهم للجهاد في سبيل الله .

كان إيمان عماد الدين باهمية وحدة المسلمين عاملا اساسيا في نجاحه ، وقد بذل قصارى جهده لتحقيق هذه الوحدة التي وقف بعض الأمراء عقبة دون تحقيقها ، وقد كان عؤلاء يستنجدون بالصليبيين كلما احسوا أن إماراتهم في خطر ، وأن ملكهم على وشك الزوال .

---

[1] الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص 3
[2] رحلة ابن جبير ،ج 1 ص 282
[4] الكامل في التاريخ : ج 10 ص 282
[4] قصة الحضارة : ج 4 ص 25
[5] تاريخ الحروب الصليبية : ج 1 ص 404

وقد استطاع عمادالدين أن ينتصرعلى المسلمين في أكثرمن موقع ، ففي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة حاصرحصن بارين واستولى عليه ، وكان هذا الحصن يشكل خطورة كبرى على المسلمين ، لأن أهله كانوا يقطعون الطرق ، وينهبون البلاد التي تجاورهم ، كما استطاع في هذه السنة أيضا أن يستولى على المعرة وكفرطاب . [1]

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة حاصر عماد الدين مدينة الرها ، واستولى عليها ، وكانت هذه المدينة معظمة عند النصارى ، فكان أخذها منهم نصرا عظيما للمسلمين . [2]

استطاع عماد الدين بهذه الإنتصارات أن يكسر شوكة الصليبيين ، كما استطاع أن يعيد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ، ولكن الله عزوجل لم يمهله طويلا ، واختصه بالشهادة إذ قتل في الليلة الخامسة من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، قتله أحد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر، وقد كان زنكي من خيارالملوك ، وأحسنهم سيرة وشكلا ، وكان شجاعا مقداما حازما ، خضعت له الأطراف ، وكان من أشد غيرة على نساء الرعية ، وأجود الملوك معاملة ، وأرفقهم بالعامة . [3]

بعد وفات عماد الدين آل القسم الشرقي من دولته إلى ولده سيف الدين غازي ، والقسم الغربي منها إلى ولده نور الدين محمود وعاصمته مدينة حلب ، وقد كان نور الدين يتوقد حماسة وشجاعة ، وقد وضع نصب عينيه اخراج الصليبيين من بلاد الإسلام ، وأوقف حياته كلها على هذا الهدف النبيل .

بدأ نور الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين فقام في سنة ست وأربعين وخمسمائة بحصار دمشق ، وقد كان في أثناء الحصار يتجنب قتال المسلمين ، ويقول لجيشه : " لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين . [4]

وأعاد نور الدين المحاولة مرة أخرى عام تسعة وأربعين وخمسمائة ، واستطاع هذه المرة ان استولى على دمشق ، وحقق بهذا أهم خطوة عسكرية خطاها المسلمون منذ أن بدأوا بالجهاد حتى ذلك اليوم . [5]

بعد استولى نور الدين محمود على دمشق جد في مهاجمة الصليبيين ، فاستولى على حصن حارم سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، كما استولى على بانياس في السنة التي تليها . [6]

عمل نور الدين بعد ذلك على ضم مصر إلى دولته ، ليحقق الوحدة الكبرى بين بلاد المسلين ، وجرت أولى محاولاته سنة تسع وخمسين وخمسمائة عندما ارسل قائده شيركوه لمهاجمة مصر التي كان يتزعمها شاور الوزير المصري ، وكان هذا يتعاون مع الصليبيين شانه شان

---

[1] الروضتين : ج 1 ص 34
[2] المصدر السابق
[3] البداية والنهاية :ج 12 ص 221
[4] ذيل تاريخ دمشق : ص 315
[5] نور الدين محمود : ص 644
[6] الروضتين :ج 1 ص 154

بـعض ضـعاف الإيمان من أمـراء الشـام ، ولم يستطـع نور الدين ان يـحقـق هدفـه في هذه السنـة لتدخل حاكم بيت المقدس الصليبي عندما استنجد به الوزير المصري .

وقـد تم توحيد البلدين سنـة أربع وستين وخمسمائة في المحا ولـة الثالثة التي أقدم عليها نور الدين ، ونجح فيها .

وقد كـان لدخول مصر في دولـة نور الدين دوي بعيد لا في مملكـة بيت المقدس وحـدها بل في الغرب الاوربي كله . [1]

حاول نور الدين بالإتفاق مع صــلاح الدين الأيوبـي الهجوم على بيت المقدس ، ولـكن ظروفـا طارئة حالت دون ذلك ، ثم جاء موته لينهي بذلك أهم خطوة كان يحلم بها نور الدين وهي تحرير بيت المقدس . [2]

وفي هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين كان صلاح الدين الأيوبي يحكم مصر ، وليس له منازع في حكمها ، ولما راى ما آل إليه أمر المسلمين في الشام ، وطمع الصليبيين في الاستيلاء على ممتلكاتهم ، عزم على الخروج إليهم ، وتوحيد القوى الإسلامية بعدهذاالتفكك الطارئ . فخرج من مصر في سنة سبعين وخمسمائة إلى دمشـق ، فلـما وصـل إليها سلمها له نائبها شمس الدين بن المقدم ، فاتجه بعد ذلك إلى حمص وحمـاة وأخذهما ، ولما وصل إلى حلب قـاومه حكامها مقاومة شديدة ، واستعانوا بالحشاشين ، وطلبوا منهم قتل صلاح الدين ، ولما فشل هؤلاء في مهمتهم أرسل الحلبيون إلى (ريموند الثالث) أمير طرابلس يطلبون مساعدته مقـابل مبلغ كـبير من المال ، وكان (ريموند) " يدرك تماما أهـمية تحـالف الصليبيين مع حلب ، كما ادرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب ، لذلك أسرع (ريموند الثالث) إلى نجدة حلب والقيام بدورحامي الصالح اسماعيل ابن نور الدين. [3]

استطاع الحلـبيون بالتحالـف مـع الصـليبيين منع صلاح الدين من اخذ حلب فترة قـصيرة من الزمن ، لكنه عاد مرة اخرى فاستطاع هزيمة الحلبيين ، وأخذ مدينة حلب ، وتم له مراده من تحقيق الوحدة الإسلامية بين مصر والشام . [4]

بعد انتهى صلاح الدين من توحيد البلاد الإسلامية ، إتجه إلى حرب الصليبيين ، وقد كـانت محاولة (البرنس إرناط) صاحب حصن الكرك الاستيلاء على مكة والمدينة دافعا قويا لصلاح الدين للتعجيل باتخاذ خطوات حاسمة ضد الصليبيين [5]، ففي أول محرم من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة جهز صـلاح الدين جيشا تعداده إثنا عشرألفـا ، وخرج إلى الأردن لـملاقاة الصـليبيين ، فجمعوا له جيشا قوامه خمسون ألفا ، والتقى الجيشان في مكان قريب طبرية يقال له حطين ، بدات المعركة في يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، واستطاع المسلمين بفضل تصميمهم على الجهاد ، وبفضل الخطة الحربية الذكية التي رسمها صلاح الدين ان ينتصروا على الصليبيين ، ويأسروا ملك بيت المقدس وعددا كبيرا

[1] نور الدين محمود : ص 319
[3] توفي نور الدين يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بعلة الخوانيق . الروضتين : ج 1 ص 228
[3] مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني : ص 309
[4] الحركة الصليبية : ج 2 ص 742
[5] المصدر السابق

من فرسانه " وقد كانت حطين أعظم من مجرد نصر حربي أحرزه المسلمون ، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرابنجاح المسلمين في القضاء على اكبرحركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى " [1]، وقد وصفها المقدسي في كتابه الروضتين فقال : "غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة ، ولمعاقدة النصر وقواعده مبرمة ومحكمة" [2] ، وقد بلغ عدد الأسرى في هذه المعركة ثلاثين الفا والقتل مثلهم[3] ، وقداجمع المؤرخوان على هذه المعركة كانت مقدمة لفتح بيت المقدس ، لأن الصليبيين جمعوا فيها خيرة فرسانهم ، ولم يكن لديهم عدد آخر يستطيع مجابهة صلاح الدين الذين قام بعمل حاسم لفتح بيت المقدس في تلك السنة ايضا .

بعد أن انتهى صلاح الدين من فتح عسقلان وما جا ورها من بلاد الساحل ، اتجه إلى بيت المقدس ، وكان ذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وقد استعد الصليبيون للقتال ، وكان كل منهم يرى أن " الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه " [4]، وقدبذل الصليبيون كل ما يمكنهم بذله للدفاع عن بيت المقدس ، أما صلاح الدين فحاصر البلد من الناحية الشمالية لأنها أضعف نواحي المدينة، وفي العشرين من تلك السنة نصب المجانيق ، وعندماتقابل جيش الإسلام وجيش الكفر تقاتلوا قتالا عنيفا لأن كل منهم يرى الدفاع عن المدينة واجبا لا يمكن التها ون به . [5]

ولما رأى الصليبيون ضعفهم وقوة خصمهم ، وانهم على وشك الهزيمة أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم مقابل فدية يدفعها كل منهم .

كان لتسامح صلاح الدين واخلاقه الفاضلة عندما فتح بيت المقدس أثركبيرعلى الصليبيين ، وقد امتدحه مؤرخوهم ، فقال (رنسيمان) : " الواقع ان المسلمين الظافرين اشتهروا بالإستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه ، إذ صار رجال الشرطة بناء على اوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين " ، " والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض افعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الاولى " . [6]

لم يعش صلاح الدين طويلا بعد فتح بيت المقدس ، إذ توفي بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وقد حزن المسلمون لوفاته حزنا عظيما ، ذكر المقدسي في كتابه الروضتين : إن يوم وفاة صلاح الدين " كان يوما عظيمالم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى " ، وعندما أخرجوه للدفن ورآه الناس ، عظم الضجيج ، حتى

[1] الحركة الصليبية : ج 2 ص 806
[2] الروضتين : ج 2 ص 78
[3] الانس الجليل :ج 1 ص 32
[4] الكامل في التاريخ : ج 11 ص 546
[5] الروضتن :ج 2 ص 96
[6] تاريخ الحروب الصليبية : ج 2 ص 752 ، 753

أن العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، وصلى عليه الناس أرسالا" .[1]

كان حزن الناس على وفاة صلاح الدين حزنا حقيقيا نابغامن القلوب ، ذلك انه حقق للمسلمين أعظم نصر في تاريخ الحروب الصليبية ، وهو إخراج النصارى من المقدس ، كما استطاع كذلك بانتصارات المتعددة عليهم ان يهيئ لمن بعده فرصة سهلة لإخراجهم من بلادالمسلمين .

بعد وفاة صلاح الدين ضعف شأن المسلمين لتفرق كلمتهم ، واختلاف حكامهم ، واستمر هذا الوضع حتى جاء الملك الظاهر بيبرس البندقداري فا ستطاع بفضل الله وتوفيقه ، ثم بعزمه على الجهاد أن يطهر البلاد الإسلامية من رجس الصليبيين . قام الظاهر بأعمال عنيفة ضدالصليبيين إذا استولى على مدينة صفد في الثامن عشرمن شوال سنة أربع وستين وستمائة وقتل كل مقاتليها ، وسبي نساءهم ، وأخذ أموالهم ،ثم أرسل جيشه يمينا و يسارا فأخذ ما يقرب من عشرين حصنا ، كما استولى على مدينة سيس ، وقتل أكثر سكانها انتقاما منهم لمساعدتهم التتارضد المسلمين ، وفي سنة ست وستين وستمائة استولى على مدينة يافا وطرابلس وأنطاكية وحصن الشقيف وقلعة بغراس ، ثم عاد إلى دمشق .[2]

كان استيلاء الظاهرعلى انطاكية ضربة قاصمة للصليبيين ، ذلك انها أول إمارة صليبية أسست في الحملة الأولى ، وكان سقوطها " إيذانا بانهيار البناء الصليبي في الشام ، وإعلانا لحركة الجهاد التي شنها السلاطين المماليك ضد الصليبيين ، وهي الحركة التي لم تنته إلا سنة 1291م بطرد آخر بقايا الصليبية من الشام " .[3]

كانت نهاية الصليبيين في الشام على يد الملك الأشرف خليل بن المنصورقلاوون ، ففي سنة تسعين وستمائة جمع عساكرالشام ومصروحاصرعكا واستطاع أخذها عنوة ، وأخذ اموالها وقتل عددا كبيرا من رجالها ، وفي السنة نفسها اخذ صوروصيدا وبذلك أصبح الساحل كله بايدي المسلمين ، كما أخذ كذلك بيروت وانطرسوس وجبيل .[4]

وفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة أكمل الأشرف اخذ بعض المدن من الصليبيين ، فاستولى على بهنسا من الأرمن ، وباستيلائه على تلك المدن وخاصة عكا انتهت دولة الصليبيين في بلاد الشام ،[5] " وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الإستعمار الاوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل ، وكفاح مستمرمريربدأه عماد الدين زنكي ، وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود ، وصلاح الدين ، وبيبرس ، وقلاوون ، ثم كان التطهير على يد الاشرف خليل بن قلاوون " .[6]

---

[1] الروضتين : ج 2 ص 213
[2] البداية والنهاية : ج 13 ص 72
[3] الظاهر بيبرس : ص 72
[4] البداية والنهاية : ج 13 ص 32
[5] مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني : ص 266
[6] تاريخ مصر الإسلامية : ج 2 ص 240

2- في مصر : -

أدرك الصليبيون ان استيلاء نورالدين زنكي على المدن الكبرى في الشام لم يترك لهم مجالا للتوسع في هذه البلاد ، وأن الطريق الذي ما زال مفتوحا لهم هو مصر ، نظرا لضعف الخلافة الفاطمية التي كانت تحكم مصرا آنذاك .

ففي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة قام (عموري) ملك بيت المقدس بغزو مصر ، فاتجه إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن وزيرها ضرغام أرغمه على الإنسحاب منها . [1]

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة أرسل نورالدين قائده شيركوه لضم مصر إلى الدولة الإسلامية ، فاستنجد وزيرها شاورب (عموري) ملك بيت المقدس مقابل مبلغ من المال ، وقد وجد (عموري) أن هذه الفرصة طيبة له ليدخل مصر بصفة شرعية ، فأعد جيشا كبيرا انضم به إلى جيش شاور وهاجموا شيركوه ، ولكنه استطاع هزيمتهم .[2]

عاد(عموري) مرة أخرى إلى مصر سنة أربع وستين وخمسمائة عندما قطع عنه شاور الجزية التي كان يدفعها له كل عام ، محا ولا الاستيلاء عليها ، فأعد شاور العدة للدفاع عن القاهرة بعد أن احرق الفسطاط ، وقد أدرك (عموري) صعوبة الاستيلاء على القاهرة نظرا لكثرة سكانها ، فقبل بالتراجع مقابل مائة ألف دينار . [3]

وفي سنة خمس عشرة وستمائة عاود ملك بيت المقدس (حنّادي برين) مهاجمة مصر بمساعدة حملة صليبية قادمة من أوربا عرفت بالحملة الصليبية الخامسة ، وقدهاجم هؤلاء دمياطا وحاصروها فترة طويلة واستطاعوا الاستيلاء عليها سنة ست عشرة وستمائة . [4]

اتجه الفرنج بعد ذلك إلى القاهرة ، وعندها وصلوا إلى المنصورة التقوا بجيش المسلمين " ونصرالله سبحانه وتعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم " [5] ، وبهذا انتهت هذه الحملة بالفشل الذريع .

وفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة استطاع المسلمون استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، فقامت على أثر ذلك عدة دعوات لحملة صليبية جديدة على العالم الإسلامي ، وقد تبنى هذه الفكرة الملك (لويس التاسع) ، وقد رأى أن يبدا بمصر ثم يتجه بعد ذلك إلى الشام ، وقد استطاع (لويس التاسع) أن يستولى على دمياط سنة سبع وأربعين وستمائة . [6] ثم اتجه إلى القاهرة ، وفي طريقة إليها وعند المنصورة انقض عليه المماليك بقيادة بيبرس البندقداري واستطاعواهزيمته وقتل العديد من أفراد جيشه ، وانتهت هذه الحملة - التي عرفت بالحملة الصليبية السابعة - بهزيمة الصليبيين وتشريدهم .[7]

---

[1] الأيوبيون والمماليك في مصر والشام : ص 11
[2] المصدر السابق : ص 14
[3] الأيوبيون والمماليك في مصر والشام : ص 18
[4] النجوم الزاهرة : ج 6 ص 231
[5] النجوم الزاهرة : ج 6 ص 232
[6] تاريخ الحروب الصليبية : ج 3 ص473 ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام : ص 136 وما بعدها .
[7] المصدر السابق : ج 2 ص 472

وإذا اردنا أن نستعرض في نهاية هذا الفصل النتائج التي حققتها الحروب الصليبية وجدنا أنها أخفقت اخفاقا تاما ، فالصليبيون لم يحققوا أي غرض من أغراضهم ، فالقدس عادت إلى أيدي المسلمين ،والثغورالإسلامية كلها أصبحت بأيد إسلامية ،" وهكذا أثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية ، في وقتها وأسباب راحتها وتعليمها وأساليبها الحربية " . [1]

والواقع أن حماسة المسلمين وإيثارهم مصلحة الإسلام على مصالحهم الشخصية ، وحبهم للجهاد ، ورغبتهم في إخراج الصليبيين من بلادهم ، والتفافهم حول القادة المسلمين الذين قادوهم إلى الجهاد ، كل هذه الامورجعلت أهداف الصليبيين تخفق بشكل تام ، وقد لاحظنا أنه كلما تناسى المسلمون خلافاتهم ، وأخلصوا أعمالهم لله ، كلما حققوا انتصارات باهرة على الصليبيين ، وأنهم كلما تفرقوا واختلفوا حلّ بهم الدمار ، وأخذت ممتلكاتهم ، كما لاحظنا أيضا وجود سلبيات من بعض الحكام في بداية الحروب الصليبية وفي أثنائها ولكن تصميم القادة الكبار على الجهاد حقق في النهاية النصر الكامل على الصليبيين .

[1] قصة الحضارة : ج 4 مجلد 4 ص 61

الفصل الثاني

ابن القيسراني : نشأته وحياته ورحلاته في مختلف أصقاء بلدان الإسلامية

مراحل حياته: -

اسمه : -

هو ابوعبد الله محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داغربن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي ،مع اختلاف القدماء حول نسبه [1] ، الخالدي الحلبي الملقب شرف المعالي عدة الدين ،المعروف بابن القيسراني ، هكذا أملى على نسبه بعض حفدته ، الشاعر المشهور ، من الشعراء المجيدين والأدباء المتفنين.[2] ولد في مدينة عكا سنة 478 هجرة .

لقبه : -

كان يلقب"شرف الدين " [3] ، ويقول النعيمي أنه كان يلقب "مهذب الدين " أو" عدة الدين" [4] وقد كان بعض الناس في تلك العصور يحمل غيرلقب واحد أحيانا ، غير أني أميل إلى الإعتقاد بأن النعيمي حين لقبه " مهذب الدين " إنما خلط بينه وبين ابن منير معاصر القيسراني الذي كان له مثل هذا الـقب [5]، ألا أن اقتران لقبه بالدين يوحـــي بالـتمييزخاص وتحديد اكـتسبه الألقاب يومئذ ، وهو يتفق مع لفظه " شيخ " التي يطلقها عليه كل من أبن العديم وابن ظافر.[6]

كنيته : -

المشهور في كنيته أنه أبو عبد الله ، ألا عند السمعاني الدي قال أنه أبو بكر عبد الله ، وفي هذا خطأ واضح ، وكناه ابن ظافر مرة بأبي عبد الله ومرة بأبي خالد ، ولا أشكال في ذلك ، لجولز تعدد الكنية للشخص الواحد ، ولأن ابنه خالدا أصبح مشهورا في التاريخ .

نسبته : -

ينسب إلى عكا لأنها مسقط رأسه وإلى قيسارية حيث نشأ وإلـى حلب حيث قـضى شطرا كـبيرا من حياته فهو قيسراني وعكاوي [7]، ويدعوه ياقوت ، القيسراني الحلبي ، واشهة الثلاثة نسبة إلى قيسارية - وهو حينا يدعي " القيسراني " وحينا " ابن القيسراني "- كأن النسبة الثانية تشير إلى أصـل أبيه لا إلى أصله هـو ، ولـيس بين الـنسبتين فرق واضـح لأن محمدا عاش شطـرا من

---

[1] مما يلاحظ على هذا النسب الذي يصله بخالد بن الوليد أن أحدا لم يقل به من المؤرخين الذين عاصروه مثل ابن القلانسي والسمعاني وابن عساكر ، وكان الأخيران منهم تلميذان تلميذين له ، واول من ذكر هذا النسب ياقوت ثم ابن خلكان ، وسكوت المؤرخين المعاصرين عنه ربما قوى جانب الشك فيه ، وهو شك آثاره ابن خلكان نفسه ، وقد ذهب ألى هذا قدماء النسابين مثل مصعب الزبيري حيث قال في معرض الكلام عن خالد بن الوليد ، وقد انقرض ولد خالد بن الوليد ، فلم يبق منهم أحد ، (نسب قريش ، ص 368) والحق ايضا أن ابن القيسراني لم يدع ليفسه هذا النسب ، لو كان يعتمد هذا نسب لافتخر به في شعره .

[2] وفيات الأعيان لابن : لابن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس ، ج 4 ص 485 ، إرشاد الأريب : لياقوت الحموي : ج 7 ص 112 ، النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي ، ج 5 ص 302 ، الخريدة القصروجريدة العصر : لعماد الكاتب ، قسم السعراء الشام ، ج 1 ص 96 ، الدارس في تاريخ المدارس : للنعيمي : ج 2 ص 388 ، ذيل تاريخ دمشق : لابن القلانسي : ص 322 ، تتمة المختصر : لابن الوردي ، ج 1 ص 54 ، الروشتين : لأبوشامة ، ج 1 ص 91 ، أعلام النبلاء : للطباخ ، ج 4 ص 237 ، شذرات الذهب : لابن العماد ، ج 4 ص 150

[3] نسب فريش : ص 328 .

[4] معجم الأدباء : ج 19 ، ص 64 ، وفيات الأعيان : ج 4 ص 82 .

[5] وفيات الأعيان : ج 1 ص 139.

[6] زبدة الحلب : ج 2 ص 293 ، بدائع البدائه : ج 1 ص 243 .

[7] الخريدة : ج 1 ص 96 ، ومرآة الزمان : ج 8 ص 213 ، والنجوم الزاهرة : ج 5 ص 302 .

حياته في قيسارية كما عاش أبوه ، كما أن بعض المصادر تجمع بين النسبتين دون إحساس بأن بينهما فرقا [1] .

مولده : -

اتفقت جميع المصادر على أنه ولد بعكا ، وأوثق الروايات في ذلك ما أورده ابن عساكر نقلا عن القيسراني نفسه إذ قال : سألت أبا عبد الله محمد بن نصر بن صغير عن مولده ، فقال : سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعكا [2]، وهذا النص يعين مكان ولادته وزمانها ، ألا أن ابن العماد يقول : وكانت ولادته بعكا سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وهذا وهم من ابن العماد أوخطأمن الناسخ ،لأن هذا المؤلف نفسه يذكرأن القيسراني توفي عام ثمان وأربعين وخمسمائة ويردف ، وعاش سبعين سنة [3] ، ومن هذا نفسه نستنتج أن مولد القيسراني أنما كان عام 478 هجرة ، وهو التاريخ الذي اتفقت المصادر الأخرى .

الرحلة من عكا إلى قيسارية : -

كانت عكا في ظل الحكم الفاطمي ، وكانت أمير جيوشهم بدرا الجمالى قد ولى زهر الدولة الجيوشي عاملا عليها ليدبر أمورها ، ولم يطل أمد حكمه ، بل انحسر عنها عندما قصدها بلدوين [4] صاحب بيت المقدس سنة 497 هجرة . فهاجمها برا وبحرا وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وسبى منهم جماعة أخرى ، واقتادهم أسرى ألى ما وراء البحر. [5]

انتقل الشاعر إلى قيسارية الساحل القريبة من عكا بعد أخذ الفرنجة لها ' ولا ندري لم تم ذلك ، أتكون سبل العيش قد ضاقت في وجه الأب ؟ أتكون الأحداث السياسية التي رافقت اجتياح عساكر مصر لسواحل الشام [6] هي سبب ذلك ؟ على أن اختيار نصر نن صغير أن يعيش في ميناء بحري بعد إ ذ اضطرته طروفه إلى مغادرة الميناء الأول قد يوحى بأن حرفته المعاشية كانب تتصل أسبابها بالبحر .

في قيسارية : -

وكانت قيسارية قوية يومئذ على اجتذاب السكان إليها ، إذ كانت من أمهات البلدان ، متسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخيروالأهل تضم عددا من الجاليات المتنوعة ، ولا ريب في أن أزدهارالتجاري البحري قد أعانها على النموواإتساع ، وربما قد رنا أن هذا المكان الجميل قد أثرفي نفس الطفل محمد بن نصرومال باحساساته إلى الأرهاف وتذوق الجمال وصبغ نظرته بالرقة البالغة .

ولم يكد محمد بن نصر يناهز السادسة عشرة من عمره حتى استبشرعن ذلك الموطن الجميل وحرم نعمة الاستقرار ، فقد كانت الحملة الصليبية قد وصلت في اواخر رجب سنة 492 إلى بيت المقدس وأعمل الفرنج في أهلها السيف وهزموا الأفضل اميرالجيوش عند ماكان بظاهر

[1] كذلك هو الحال في الكامل ومرآة الزمان والبداية والنهاية .
[2] تاريخ دمشق : ج 40 .
[3] شذرات الذهب : ج 4 ص 150 .
[4] بلدوين : كما سماه العرب ، وهو بودوين Baudouin ، وقد فتح عكا سنة 1104 م .
[5] البداية والنهاية : لابن كثير ، ج 14 ص 31 .
[6] الكامل في التاريخ : ج 10 ص 94 ، قد تم اجتياح عساكر مصر لسواحل الشام حوالى 482 هجرة .

عسقلان ، واصبح الساحل الفلسطيني أمامهم مكشوفا ، فافتتحوا حيفا عنوة سنة 494 وملكوا أرسوف وأخرجوا أهلها منها ، وفتحوا قيسارية وقتلوا أهلـــها ونهبوا ما فيها [1]، وكـــان الشاب محمد بن نصر من الذين هربوا ناجين بأنفسهم .

في دمشق : -

انتقل اولا إلى حلب ثم أتى إلى دمشق ، فقرأ الأدب على توفيق بن محمد الدمشقي ، واتصل بشاعر الشام في عصره ابن الخياط ، وتأدب عليه ، وتوثقت علاقته به ، ويبدو أنه لمس عنده موهبته الشعرية فعنى به وشجعه ، وبصّره بمذهبه الفني ، واعتمد عليه وحده في رواية شعره ، كما صرح بذالك في ختام ديوانه بقوله :" إن كل ما رواه عنى فهو ماسمعه مني وقرأه على ، وما رواه غيره فلايعتد به " [2]

كانت دمشق بيد تاج الدولة تتش ، فلما قتل عام سنة 488 خلفه عليها ابنه شمس الملوك دقاق يعينه في تدبيرالشؤون ظهير الدين طغتكين أتابك الذي اصبح الوصي أيضا على تتش بن دقاق حين توفي هذا عام 498 ، وقد سار طغتكين في الناس سيرة حسنة ، فظهرت الغلات وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في ظاهر دمشق وباطنها [3] .

ودخل محمد بن نصر دمشق - وهي في هذه الحال من العدل والرخاء - وفي نفسه شغف إلى العلم والأدب ، إذ أن إقامته القصيرة في القيسارية لم تمكنه من الطلب ولم تصله بالعلماء ، فاخذ يلازم مجالس العلم والأدب في دمشق ، فتتلمذ على كثيرمن العلماء دون فيما سبق ذكرهم ،

وقد كانت لابن الخياط صلة بتاج الملوك أبي سعيد بوري بن طغتكين - كان حينئذ وليا لعهد ابيه - حتى أنه مدحه بثلاث قصائد ، وكان يحضر مجالس لهوه ، ويصفها في شعره ، ولعل هذا الشاعرهوالذي قدم تلميذه إلى تاج الملوك بوري ومهّد لإنشاءالعلاقة بينهما ، إذ نرى محمد بن نصر القيسراني في عام 523 يمدح تاج الملوك بوري ، على إثر انتصار هذا الوالي ضد جموع الأفرنج الذين طمعوا في الإستيلاء على دمشق بعد إستيلاءهم على بانياس ، وقد استعان بوري عليهم بأمراء تركمان ، وهاجم التركمان والعرب قافلة للأفرمج عائدة من حوران فقضوا عليها [4]، وقد سجل القيسراني هذا النصر في قصيدة له مطلعها :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ومال اعدا مجير الدين مقتسم

فقد كان الشاعر يومئذ يناهز الخامسة والأربعين ، ومن المرجح أنه مارس نظم الشعر قبل ذلك بسنوات غير قليلة ، ألا أننا لا نستطيع أن نصل بين ما قاله من قبلها وبين أحداث تاريخية هامة ، غير أن هذه القصيدة ربما كانت أول التفاتة يلتفتها القيسراني إلى الواقع الذي كانت تعيشه بلاد الشام ، وهو الواقع الذي ربط به حياته من بعد ، وفي نطاقه تفتحت شاعريته وأثمرت ، وإذا حكمنا منها على ما كانت قد بلغته طريقته الشعرية يومئذ وجدنا أن الصنعة لا تزال قليلة السيطرة على ابياته ، وراينا أنه يتناول الأمور تناولا قريبا فهو يتتبع خطوات الحادث واحدة

[1] ذيل تاريخ دمشق : 139 ، والكامل : ج 10 ص 222 .
[2] ديوان ابن الخياط : ص 331 .
[3] ذيل تارخ دمشق : ص 145
[4] المصدر السابق : 224 -226

واحدة بالترتيب ويتحدث عنها في قصيدته مغلغا لها بثوب من التهويل ليس فيه للخيال مجال كبير.

وفي دمشق تولى القيسرني عمل الساعات على باب الجامع عند باب جيرون ، وكانت هذه الوظيفة تدر عليه شيئا من المال بالإضافة إلى ما كان يناله من مكافآت على مدائحه ، وقد أحب دمشق وتحدث عن جمالها في شعره ، فقال :

أرض تحل الأماني من أماكنهـــا بحيث تجتمع الدنيا وتفتـــرق

إذا شدا الطير في أغصانها وقفت على حدائقها الأسماع والحدق

رحلته إلى العراق وعودته إلى دمشق : -

تُذكر أسباب شتى لارتحال ابن القيسراني من دمشق إلى العراق منها : أصاب ممدوحه تاج الملوك بوري الذي عدا عليه الباطنية في جماد الآخرة من سنة 525 فضربوه بالسيف والحنجر وتركوه مثخنا بالحراح [1]، وقد تكون هناك دوافع أخرى وراء هذه الرحلة ، كأن نقدر أن الشاعر كان يرجوا لنفسه في بغداد حظا أطيب مما وجد في دمشق ، فيهم شطره نحو الشمال و الشرق إلى حلب و الموصل ليجد الأمان لدى الملوك الزنكيين الذين بسطوا حكمهم على القسم الأعظم من البلاد .

اتجه الشاعر في هذه المرحلة من حياته إلى مدح أعيان دار الخلافة ، فمدح جلال الدين بن صدقة وزير الخليفة المسترشد [2] ، وابن الأنباري سديد كاتب الإنشاء بديوان العزيز [3] ، كانت هذه المدح زلفى اقتضتها صلته بالملوك الزنكيين ، وكان عماد الدين أول من مدحه من ملوكهم ، وكان بالطبع وزيره جمال الدين الأصفهاني السبيل الذي أوصل إليه ، ويتحتم علينا كذلك أن نتحدث عن نور الدين خليفة ابيه بعد مقتله وهو على حصار قلعة جعبر ، ولابد له من مدح وزير الآخر كمال الدين الشهرزوري ،

قد ارسل الخليفة المسترشد السديد سفيرا إلى دمشق ليتسلم دبيس بن صدقة صاحب الحلة ، وكان قد أصبح أسيرا في يد تاج الملوك بدمشق ، فوصل السديد إلى دمشق في أواخر ذي العقدة سنة 526 ، ولم تنجح سفارته وقفل عائدا إلى بغداد فصادفته خيل اتابك زنكي بناحية الرحبة فأسروحمل إلى أتابك حيث حبسه ولم يطلقه إلا بعد أن تشفع فيه الخليفة نفسه [4] .

هل أسرعت هذه الأحداث بعودة ابن القيسراني من العراق ؟ لعلها فعلت ذلك ، لأننا نراه عائدا إلى الشام سنة 527 دون أن تثمر رحلته كثيرا من الناحية المادية ولكنها أثمرت نتاجا أدبيا من أجمل ما كتبه ابن القيسراني ، أعني مقطعات الحنين التي نظمها في هذه الرحلة ، ومن عجب انه مقسم الهوى متنازع العواطف بين العراق والشام .

---

[1] ذيل تاريخ دمشق : 230 ، والكامل : ج 10 ص 470 -472

[2] العماد الكاتب : الخريدة ج 1 ص 128 (هو ابو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستطهر بالله من خلفاء الدولة العباسية . بويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده 16 ربيع الآخر سنة 513 هجرة ، استمر خليفة إلى أن استشهد في يوم الأحد 17 ذي العقدة سنة 529 هجرة) .

[3] العماد الكاتب : الخريدة ج 1 ص 129- 131

[4] ابن الأثير : الأتابكة : ص 83 -84 ، وزبدة الحلب : ج 2 ص 250 .

وفي هذه الأبيات يحدد ابن القيسراني أن شوقه مرتبط بدمشق وأن أهله فيها ، وهذا يقوي ماذهبت إليه من انه اتخذ دمشق دار إقامة بعد هجرته الأولى من قيسارية .

ولما عاد ابن القيسراني إلى دمشق وجد أن ممدوحه تاج الملوك قد توفي على إثرما أصابه من جراحات وخلفه ابنه شمس الملوك أبو الفتح إسمعيل ، فبدأ عادلا رحيما ثم انقلب إلى فساد وركوب للقبائح وأخذ يصادر العمال والمتصرفين بل عزم على مصادرة كتابه وخواصيه [1] .

في حلب : -

فارق ابن القيسراني دمشق مرة أخرى ، وكان في هذه المرة مضطرا غير مختار ، إذ أن تلك الموجة من الظلم الذي نشره شمس الملوك قد أصابته برشاشها ، وكان ابن القيسراني في صفوف الناقمين على تلك الحال ، أنه هجا شمس الملوك هجاء مرا ، فلاذ بالهرب ووجهته مدينة حلب التي ربما كان قد عرفه من قبل واستوطنها بعض الوقت ، وكانت حلب قد أصبحت ضمن ما يحكمه عماد الدين زنكي من بلاد ، وفيها استطاع الشاعر أن يجد لنفسه مورد رزق ثابت حين تولى خزانة الكتب ، واستمر على اتصاله بالعلماء فسمع من هاشم بن أحمد الحلبي ووابن طاهر الخطيب [2] .

وتمثل هذه الفترة المرحلة الثانية - وهي المرحلة الخطيرة من الناحية الأدبية - في حياته ، إذ قد اتضح لديه اتجاهه الأدبي ، بعد أن انتهى عهده بالتفتيش عن الحامي الملائم الذي يركن إلى ظله ، وربط شعره بمبدأ الجهاد ضد الصليبيين ، وأصبح شاعر الدولة الأتابكة أولا في عهد عماد الدين ثم في عهد نور الدين ، وغدا شعره سجلا للحوادث والمعارك حسب تتابعها الزمني ، وكثر ممدوحه من رجالالت الدولة وأصبح فيهم الوزير والقاضي والأمين والنائب ، ولذلك حفلت هذه الفترة بنشاط أدبي ملحوظ وإنتاج عزيز.

من أهم ممدوحين لابن القيسراني في هذا العصر : -

- ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي ، الذي استوزره عماد الدين سنة 528 .
- قاضي نجم الدين الشهرزوري ، قاضي مملكة الأتابكة الذي ولى القضاء من بعد وفات ابيه بهاء الدين ، سنة 528 .
- عماد الدين الزنكي ، سجل انتصاراته على الفرنج ، مثل فتح بارين والرها وعكا وغيرها .

خلّد الشاعر انتصاراته في بلاد الشام ، وشهد بأم عينه البطولة الإسلامية في هذا العصر الذي تميز بتوالي الحروب بين الشرق والغرب ، وطبيعي جدا أن تظهر قومية إسلامية تجابه الصليبيين حفظا لبقائها ، وكان عماد الدين قد أزمع أمره على تخليص البلاد منهم ، فسار إلى الفرنجة سنة 534 هجرة وحاصر - كما رأينا – " بارين " أمنع حصونهم التي كانو يحتلونها لأنها واقعة في داخل البلاد قرب حماة ، وكانت مصدر خطر يتهدد سكانها .

خلّد ابن القيسراني هذه المعركة في رائية مشهورة ، مطلعها قوله :-

[1] ابن القلانسي : 230 -234 ، 245 -247 ، وابن الأثير : ج 10 ص 478 وجوء 11 ص 11 -12
[2] معجم الأدباء : ج 19 ص 64 ، وفيات الأعيان : ج 4 ص 82 .

حذار منا ، وأنى ينفع الحذر ؟ وهي الصوارم ، لا تيقي ولا تذر .

- قاضي كمال الدين الشهرزوري ، في عام 540 كتب إليه قصيدة من حلب .
- الوزير جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبو منصور ، مدحه ايضا بفتح الرها .
- أبو الرضا بن صدقة ، وزير عماد الدين ، مدحه بقصيدتين .

في أنطاكية : -

سار ابن القيسراني سنة 540 إلى أنطاكية ، وكان يومئذ قد تجاوز الستين من عمره ، وخلف عهود الهوى وراء الستين ، وكانت رحلة قصيرة لم تتطاول أيامها إلا أنها أمدت الشاعر بتجربة جديدة إذ كانت أنطاكية يومئذ في يد الصليبيين ، ومركزا هاما من مراكز المسيحية ، تزد أن بالكنائس والأديرة ، مثل كنيزة السيدة وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع ، وبزيارة وكانت للأفرنج خاصة ، وكنيسة القسيان [1]وأشمونيث - وهي للغريرة - ودير سمعان في جبل اللكام وحواليه من الأديرة والسواميع والبساتين والمياه المتفجرة وأنهار الجارية وضرب النواقيس في الأسحار وألحان الصلوات ما يتصور معه الإنسان أنه في الجنة [2]، وفتنته روعة المباني وطبيعة الحياة والطقوس وجمال النساء ، وخلد ذلك كله في مقطعات تسمى " الثغريات " تعد من أجمل ما نظمه ابن القيسراني .

والحق أن مقطعات القيسراني في أنطاكية تكمل الصورة التي يحب المؤرخ أن يرسمها للأثر الذي أحدثه الصليبيون في ديار الشام ، وعند ما كر الشاعر من هذه الرحلة إلى حلب كان على حد قوله قد خلف قلبه هناك وغبط الأسرى على ما هم فيه من نعمة بمشاهدة ذلك الجمال .

سرت وخلفت في ديارهم قلبا تمنيت أنه بصـــــــــــر

ولم أزل أعبط المقيم بهـا للقرب ، حتى غبطت من أسروا

في ظل نور الدين : -

قتل عماد الدين زنكي في ربيع الأول عام 541 أثناء حصاره قلعة جعبر ، وذهب الرجل الذي وقف أيامه على الجهاد شهيدا ولقب بعد موته بالشهيد ، ولا نشك في أن الشاعر رثاه وإن لم توصلنا قصيدته في رثائه .

شطِرت مملكة العماد ، وقسّمت بين ولديه ، فاستقر ابنه الأكبر سيف الدين بالموصل ، وابنه نور الدين في بلاد الشام ، وكان من المحتم على الشاعر أن يتصل به ، فلقد كانت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي نقطة تحول وانطلاق لظهور القومية الإسلامية التي كانت نتاج العصبية الصليبية ، وأكد هذه الحقيقة الهامة الشاعر في كتاب بعث به إلى نورالدين وجاء فيه قوله : " سلام الله وحنانه ، ورأفته وإمتنانه ، وروحه وريحانه ، على من عزم بعزة العواصم ، وخصم بحجته الدهر المخاصم ، والجم بهيبته العائب والواصم ، الذي انتضى في سبيل الله

[1] أخبار الحكماء : للقفطي ، ص 194 .
[2] المصدر السابق نفسه .

سيوف الجهاد ، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة الله ، وليس غير الله من هاد ، ومن أصبحت أطراف البلاد أطوادا لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال مملكته ، ومركز الشكر مرامز أعلامه وألويته ، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة من ثغور النصر ، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر ، وصعاب الأمور منقاذة إليه بأزمة القهر ، لاومن رأى الحكم دارسة فبنى مدارسها ، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها ، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها ، ومن عمر ربع السنين بعد ما عفا ، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا ،ومن نشر أعلام الفضل ، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل ، ومن أنار بوجهه الإيمان وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان " . [1]

يتضح من هذه الرسالة أن الشاعر كان معجبا بنور الدين لأنه أنقذ الدين ، وذاد عن العرين ، واستطاع أن يطهر بعض بلاد الشام ، ولم يبق أمامه غير بقايا من ملوكهم وأمرائهم وها هو ذا المنبر يعده الاختريني كأحسن ما يكون لنقله إلى بيت المقدس عند تحريره .

عاد نور الدين من حصار جعبرإلى حلب ، ومنذ هذا التاريخ حتى عام 546 يظل ابن القيسراني في بلاط نور الدين جاعلا من شعره سجلا لأحداث جهاده ووقائعه ، فلم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا وصفها ، وشعره الذي قاله فيه خلال سبع سنوات سجل صادق وتاريخ ناطق ، يؤرخ فيه هذه الفتوح ويعبر عن شعوره وعواطفه .

ومن المفيد ان نتتبع تطور شعره في هذه الفترة خطوة خطوة : -

- في سنة 543 تجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ويغبروا عليها ، وعلم نور الدين بالأمر فقصدهم بعسكره فالتقوا بيغري واقتتلوا قتالا شديدا انجلى عشيره عن كسرة الفرنج كسرة عظيمة ، وقتل الكثيرمنهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل ، وفي هذه الوقعة قال ابن القيسراني :

ياليت ان الصد مصدود اولا فليت النوم مردود .

- وفي صفرمن سنة 544 قصد نور الدين حصن حارم - هوللفرنج - فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل إلى حصن إنّب فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا فحلت بالفرنج هزيمة منكرة ، وقتل منهم جمع كثير وأسرمثلهم ، وكان ممن قتل البرنس صاحب أنطاكية ، وأكثر الشعراء من مدح نور الدين بعد هذه الوقعة [2]، وفيها يقول ابن القيسراني من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد ، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية ، مطعها :

هذي الهزائم لا تدعي الــقُضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت تعثرت خلفها الأشعاروالخُطب .

---

[1] أبو شامة : الروضتين : ج 1 ص 18 ، ويجدر بالملاحظة هنا أنه أطلع عليها في ديوانه ، واختار بعض ما قاله فيه من شعر ، لكن الديوان الذي بين أيدينا لا يحتوي على الرسالة المذكورة آنفا ، فآثرنا إيرادها كاملة ، ولنا حوله رأي ستعرضه في حديثنا عن ديوان الشاعر .

[2] الكامل : ج 15 ص 95

• . يتوفى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي في جمادي الآخرة سنة 544 بعلة القولنج ، وقد كان سيف الدين كريما شجاعا رعى أهل العلم وبنى لهم المدرسة الأتابكية بالموصل وبنى فيها أيضا رباطا للصوفية ، وكان ممدحا مدحه الشاعر الحيص بيص [1]، فيقول ابن القيسراني معزيا سيف الدين :

ما أطرق الجو حتى أشرق الأفق إن اغمد السيف فالصمصام يأتلق

• . ويحل عيد الفطر سنة 544 ، فيهنئ ابن القيسراني مولاه نور الدين بقصيدة ، مطلعها :

أبدي السلوخديعة للائـــــــــم وحنا الضلوع على فؤاد هائم

وراى الرقيب يحل ترجمة الهوى فاستقبل الواشي بثغر باســـم

• . وكان نور الدين بحلب عندما ملك أخوه قطب الدين الموصل بعد وفاة سيف الدين ، فكاتبه المقدم عبد الملك مستحفظ سنجار ليأتي ويتسلمها ، فسار نور الدين في جماعة من مقدميه ودخلها ، فلما سمع قطب الدين وزيره جمال الدين بالأمر ساروا في العسكر ، وكادوا يقتتلون إلا أن جمال الدين الوزير أشار بالصلح ، فاتفقوا على أن ياخذ نور الدين حمص وهي أنفع له - وكانت تتبع مملكة الموصل - ويسلم سنجار لأخيه ، فاتفقت كلمتهم وعاد نور الدين إلى حلب وأخذ معه ما كان عماد الدين قد ادخره في سنجار من الأموا ل وهي كثيرة جدا [2] .

فقال القيسراني في نور الدين عند قدومه وذلك في منتصف ذي العقدة سنة 544 .

هذا الذي ولدت له الأفكـــــار وتمخضت فألا به الأشعـــــــار

وجرت له خيل النهى في حلبة وردت وصفو ضميرها المضمار

• وكان نور الدين قبل توجهه إلى سنجا ر محاصرا دمشق ، وسبب حصاره لها أنه كان راسل ارباب دمشق يستدعي منهم المعونة على الفرنج فغالطوه ، فجاء نور الدين وراسلهم مصرا على طلب الإنجاز ومؤكدا عدم رغبته في حربهم ، فجاءه الجواب بالرفض فغزم على الزحف على البلد ، ولكن الأمطار منعته من ذلك ، وفي محرم من سنة 545 تقررالصلح بينه وبين ارباب دمشق وخرج إليه مجير الدين آبق والرئيس ابن الصوفي وبذلا له الطاعة والخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة ، ونقش اسمه على الدينار الدرهم ، فرضي بذلك وخلع على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وعلى الرئيس خلعة الوزارة وطيب قلوبهما ورحل إلى حلب[3] .

فقال ابن القيسراني يهنئ نور الدين ويمجد هذا النصر السلمي [4] :

لك الله ، إن حاربت فالنصر والفتح وإن شئت صلحا عد من حزمك الصلح

[1] الكامل : ج 11 ص 91 -92 ، مرآة الزمان : ج 8 ص 204 ، الروضتين : ج 1 ص 167 -169 .
[2] الكامل في التارخ : ج 11 ص 92 -93 ، الروضتين : ج 1 ص 172 -174 .
[3] ذيل تاريخ دمشق : 310 .
[4] الابيات في الروضتين : ج 1 ص 180 .

وهل انت إلا السيف في كل حالـــة فطورا له حد وطورا له صفـــــــح

سقيت الرديئيات حتى رددتهـــــا ترنخ من سكره فحل القنا تصحـــــو

• . ثم كان سنة 545 احد انتصارات نور الدين الكبيرة على الفرنج ، فقد جمع نور الدين عسكره وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب ، وعزم على محاصرتها فجمع جوسلين الفرنج فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل وأسر منهم جمع كثير ، فشق الأمر على نور الدين ، وأراد أن يأخذ جوسلين بالحيلة فاحضر جماعة من التركمان ، وبذل لهم الرغائب أن ظفروا بجوسلين فكمنوا له وأسروه ، وكان أسره من أعظم الفتوح ، وبعد أخذه أسيرا سار نور الدين ملك القلاع التي كانت في حوزته ، منها : تل باشر ، وعزاز ، وعين تاب ، وكغرلاثا ، ومرعش .

فقال القيسراني في هذا النصر قصيدته [1] :

دعا ما دعا من غره النهي والأمر فما الملك إلا ما حباك به القهر

ومن ثنت الدنيا إليه عنانهـــــا تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر .

• . وفي محرم من سنة 546 عاود نور الدين النزول على دمشق ، وراسل من بها ، يطلب منهم الخروج معه لحرب الفرنج ، فرفضوا ، فقرب من البلد وحدثت مناوشات بين العسكرين ظلت مستمرة حتى صفر، وتواصل الأرجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للإنجاد ، فرحل نور الدين إلى ناحية الاعوج ، وبعد رحيله وصل الفرنج واجتمعوا بمجير الدين ومؤيد الدين وقرروا قصد بصرى ، واضطرهم الانكفاء عنها مخذولين ، وعاد عسكر الفرنج إلى أعماله في ربيع الأول ، وعاد نور الدين ، فنزل قرب دمشق ، واستمر بالزحف ، وترددت مراسلات انتهت بصلح وقبول الشروط المقترحة من الجهتين ، فرحل عن دمشق في منتصف ربيع الآخر[2] ، وفي رجب توجه مجير الدين إلى حلب في خواصه ، ودخل على نور الدين صاحبها ، وأكرمه وبالغ بالفعل الجميل في حقه ، وقررمعه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، وانكفأ مجير الدين مسرورا ، ووصل دمشق ودخلها في شعبان [3].

وقد ابن القيسراني بهذا اللقاء والوفاق بين نور الدين ومجير الدين ، فاتفاقهما يعني وحدة صف قد تكون خطوة أولى في تحقيق أمل يراول خيال الشيخ دائما ، وهو الامل في تحرير البلاد من الفرنج الغاصبين ، فقال يهنئ نور الدين بطاقة دمشق له وابفاذها غر سلاطينها لتقديم فروض الولاء وإظهار مشاعر الود الذي تكنه له :

وفت لك الدنيا بميعادها باذلة أفلاذ أكبادهـــــا

وأوفدت غُر سلاطينهـا عليك في همة أنجادها .

[1] الروضتين : ج 1 ص 185 -188 ، معجم الأدباء : ج 19 ص 65 -70 ، الخريدة : ج 1 ص 157 -159 .
[2] ذيل تاريخ دمشق : ص 312- 316 . مرآة الزمان : ج 8 ص 209 -211 .
[3] المصدر السابق : ص 317 ، مرآة الزمان : ج 8 ص 211 ، الروضتين : ج 1 ص 208 .

اختلافاته بالشاعر ابن منير الطرابلسي : -

كان ابن منير الطرابلسي شاعرا مكثرا الهجّاء معارضا لإبن القيسراني ،وكان مقربا أيضا من الزنكيين ، وكان يوكل إليه في بعض الأحيان مهمات السفارة بين ملوك حلب وملوك دمشق من آل طغتكين ، وكان بينهما مكاتبات وأجوبة ومهاجات ، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادت المتماثلين ، ويظهر أن ابن القيسراني هوالذي بدأ العداوة ، لأنه كما يرى العماد " وقع في مباراته ومجاراته في مضمار القريض و مناقضته ، كأنهما جرير العصر و فرزدقه ، وهما مطلع النظم و مشرقه ، وشى بالشام عرفهما ، ونشأ عرقهما ، وكثر رياشها ، وتوفر معاشاعهما ، وعاشا في غبطة و رفعة و بسطة".[1] وهما كفرسي رهان وجواري ميدان ، وكان القيسراني سنيا متورعا وابن منير غاليا متشيعا ، وكان مقيما بدمشق إلى أن احفظ اكابرها وكدر بهجوه مواردها ومصادرها ، فأوى إلى شيرز وأقام بها وروسل مرار في العود إلى دمشق فابى ، وكتب رسائل في ذم اهلها ، و اتصل في آخر عمره بخدمة نور الدين ووافا إلى دمشق رسولا من جانبه قبل استيلائه عليها .[2]

وقال ابن خلكان في ترجمته وفيات الأعيان : نقلت من خط الشيخ الحافظ المحدث زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري المصري رحمه الله تعالى قال : حكى لي أبو المجد قاضي السويداء قال : كان بالشام شاعران ابن منير وابن القيسراني ، وكان ابن منير كثيرا ما يبكت[3] ابن القيسراني بأنه ما صحب أحدا إلا نكب ، فاتفق ان أتابك عماد الدين زنكي صاحب الشام غناه مغن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول الشاعر :

ويلي من المعرض الغضبان إذ نقل الـ ـواشي إليه حديثا كلـــــه زور

سلمت فازور يزوي قوس حاجبـــــه كأنني كأس خمر وهو مخمور

فاستحسنها زنكي وهو قال : لمن هذان ؟ فقيل لإبن منير وهو بحلب ، فكتب إلى والي حلب يسيره إليه ، فسيره ، فليلة وصل ابن منير قتل أتابك زنكي ، فعاد ابن منير صحبة العسكر إلى حلب ، فلما دخلها قال له ابن القيسراني : هذه بجميع ما كنت تبكيني به .

قلت لإبن القيسراني المذكور في ابن منير وكان قد هجاه :

ابن منير هجوت مـــــني خيرا أفاد الورى صوابه

ولم تضيق بذاك صدري فإن لي أسوة الصحــابة[4]

---

[1] العماد الكاتب : الخريدة : ج 1 ص 79
[2] أعلام النبلاء : راغب بن محمود الطباخ ج 4 ص 224
[3] ه : يثلب
[4] وفيات الأعيان : ابن خلكان ج 2 ص 16

وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال في ترجمته : حدث الخطيب السديد أبو محمد عبد القاهر بن عبد العزيز خطيب حماة قال : رأيت أبا الحسين ابن منير الشاعر في النوم بعد موته وأنا على قرنة بستان مرتفعة ، فسأله عم حاله وقلت له : اصعد إلى ، فقال : ما أقدر من رائحتي ، فقلت :تشرب الخمر ؟ فقال : شرا من الخمر ياخطيب ، فقلت : ماهو؟ فقال : تدري ما جرى عليّ من هذه القصائد التي قلتها في مثالب الناس ؟ فقلت له ما جرى عليك منها ؟ فقال : لساني قد طال وثخن حتى صار مد البصر ، وكلما قرأت قصيدة منها قد صارت كلابا تتعلق في لساني ، وابصرته حافيا عليه ثياب رثة إلى غاية وسمعت قارئا يقرأ من فوقه (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . الآية) ثم انتبهت مرعوبا .

قال ابن عساكر: سكن دمشق ورأيته غيرمرة ، وكان رافضيا خبيثا ، خبيث الهجو والفحش ، [1] فلما كثر ذلك منه سجنه الملك بوري بن طغتكين مدة وعزم على قطع لسانه ، فاستوهبه يوسف بن فيروز الحاجب فوهبه له ونفاه ، فخرج إلى البلاد الشمالية ، وقال غيره : فلما ولى ابنه اسمعيل ابن بوري عاد إلى دمشق ، ثم تغير عليه لشيئ بلغه عنه ، فطلبه وأراد صلبه ، فهرب واختفى في مسجد الوزير أياما ، ثم لحق بحماة وتنقل إلى شيرز وحلب ، ثم قدم ديشق في صحبة السلطان نور الدين محمود ، ثم رجع مع العسكر إلى حلب فمات بها .[2]

وفادته على مجير الدين في دمشق : -

لم يكن ابن القيسراني قد سلا دمشق فهي موطن أحبه فيما مضى ، ولكن الخلاف بين أمراءها واتابكة الموصل صده عنها بعض الوقت حتى إذا تم الوفاق ، واصبحت دمشق تشائع الاتابكة ، فرح ابن القيسراني بذلك ، لمصلحة الجماعة ، إذ كان خروج دمشق عن طاعة الاتابكة يمكن للفرنج في البلاد ، وفرح تقديرا للمصلحة الذاتية ، إذ أصبحت دمشق التي عاش ردحا من الزمن مطمح أنظاره .

ولعل قدوم مجير الدين [3] إلى حلب عام 546 ، عرف ابن القيسراني إليه ، فراى منه ما سره وشجعه على قصده ، فنرى ابن القيسراني يذهب إلى دمشق عام 547 ويمدح مجير الدبن بقصائد عدة .

يقول في إحداها :

أقدك الغصن أم الذابـــــل ومقلتاك الهند أم بابل

سحران هذا طاعن ضارب وتلك فيها خبل خابـــل

[1] في تهذيب ابن عساكر وكان رافضا خبيثا يعتقد مذهب الإمامية ، وكان هجاء خبيث السان يكثر الفحش في شعره

[2] أعلام النبلاء : راغب بن محمود الطباخ : ج 4 ص 225

3هو مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين ، تولى أمر دمشق بعد موت أبيه في الثامن من شعبان عام 534 ، بدبر دولته معين الدين آثر الذي كان هو الحاكم الفعلى حتى وفاته عام 544 ، ومجير الدين هو آخر من ملك دمشق من بيت ظهير الدين أتابك طغتكين ، وظل حاكما لها حتى أخذها منه نور الدين عام 549 ، فتوجه إلى بغداد وأكرمه الخليفة المقتفي ، توفي بغداد عام 564 . (ذيل تاريخ دمشق : 270 -273 ، الكامل : ج 11 ص 85 -86 ، زبدة الحلب : ج 2 ص 273 -274)

صلات أخرى بممدوحين آخرين : -

هناك بعض ممدوحي ابن القيسراني الذين لم تسعفنا حوادث التاريخ على تبين صلته بهم واضحة ، وهؤلاء هم :

1 الأمير مجد الدين أبوسلامة مرشد بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ :

هو من بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وهو والد أسامة ، استخلفه أخوه ابو مرهف نصربن علي لما حضره الموت فرفض وقال : والله لاوليتها ، ولأخرج من الدنيا كما دخلتها ، فولاها أخاه ابا العساكر سلطان بن على ، كان له اليد الطولى في النجم مع روعه ودينه وصومه الدهر ، وكان مشغوفا بالصيد يرى فيه نزهته ، فلم يكن له شغل سوى الحرب وجهاد الفرنج ونسخ كتاب الله ، وقد سعى المفسدون بينه وبين أخيه سلطان أمير شيزرفاوقعوا بينهما ، وتعاقب الاخوان شعرا ، وتوفي أبو أسامة سنة 531 [1].

2 عزالدولة بن منقذ : هو عز الدولة أبو الحسن على بن مرشد بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ ، أخوا أسامة [2].

3 أبو الحسين بن أحمد بن زريق عفيف الدين : كان هو متولي بيت المال .

4 أبو غانم سعد بن طارق : وهو من أحد رجال العلم .

5 القاضي الاجل السيد فخر الدين شمس القضاة أبومنصور ابن الطرسوسي .

6 علي بن مالك بن سالم العقيلي : صاحب قلعة جعبر .

7 حسام الدين تمرتاش : هو حسام الدين تمرتاش بن الأمير نجم الدين ايل غازي بن ارتق ، صاحب ماردين ونصيبين . توفي سنة 548 .

8 أمين الدين : لعله أن يكون أمين الدين زين الحاج أبا لقاسم متولي ديوان نور الدين ، وقد اعتقله نورالدين سنة 554 ، بعد ان ثبت له تآمره عليه لمصلحة اخيه نصرة الدين اميراميران .

9 ابن الداية : هو مجد الدين ابوبكرابن داية نور الدين : وأخوه في الرضاعة ، تربى مع نور الدين ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بهد والده ، فاستنابه في حلب ، وكان يثق به كثيرا ، وقد اقطعه نور الدين شيزر وقلعة جعبر وتل باشر وحارم وعين تاب وعزاز، توفي في رمضان سنة 565 .

مرضه ووفاته : -

[1] الخريدة : ج 1 ص 558 – 563 ، الروضتين : ج 1 ص 280 – 281 .
[2] الروضتين : ج 1 ص 280 .

وعاد ابن القيسراني إلى حلب ، وكأنما عاود الحنين أذن مجير الدين آبق إلى الترنم بمدائح ابن القيسراني فيه ، فاستدعاه من حلب ، ووصل ابن القيسراني إلى دمشق يوم الأحد الثاني عشر من شعبان سنة 548 [1]. وحضر مجلس مجير الدين وأنشده قصيدة حبرها يائية مقيدة حسنة المعاني والمقاصد ، فاستحسنها السامعون ، واستجادها ، وشفعها بغيرها ووصله احسن صلة [2] ، ولم نقع على قصيدة يائية له في مجير الدين كتلك التي يشير إليها ابن القلانسي ، كما أن ابن عساكر أشار إلى قصيدة واحدة فقط قالها ابن القيسراني في مجلس نور الدين ، وهذه القصيدة ، وكانت آخرما أنشده ، هي :

بين فتور المقلتين والكحل هوى له من كل قلب ما انتحـل

توق من فتكتها لواحظـــا أما ترى تلك الظبى كيف تسل

يا ويحها نواظرا سواحـرا ما عُقل العقل بها الا اختبـــل

ومنها في مجير الدين :

اياك أن تحمل قتلي ظالما فما لخصمي بقبيلي من قبـــل

ترى ولي الثـــأر أن أراده فهل من مجيرمن مجيرالدين هل

ولم يعش طويلا بعد قدومه إلى دمشق إذ عرضت له حمى حادة ومعها أسهال مفرط [3]، ولعل هذه الحمى كانت بقايا الداء الذي عرض لأهل دمشق في السنة السابقة ، إذ شهدت دمشق في شوال سنة 547 تغييرا في الماء والهواء أسفر عن حمى وسعال عما الخاص والعام والشيوخ والشباب والأطفال ، وكثرالموت بين الناس نتيجة لذلك ، ويصف لنا ابن عساكر ايامه الأخيرة في دمشق ، يقول : " ولم تطل مدته بعد قدومه وكان قد أنشد والي دمشق قصيدة يمدحه بها يوم الجمعة ، وكان أنشده إياها وهومحموم ، فلم يات عليه الجمعة الأخرى ، وكنت قد وجدت أخي أبا الحسين رحمه الله قاصدا لقياه فاصطحبني معه ، فقلت لأخي في الطريق اني أظن ابن القيسراني أنه سيلحق ابن منير كما لحق جرير الفرزدق ، بعد يسير فكان كما ظننت ، فلما دخلنا عليه وجدناه جالسا على فراشه فسالناه عن حاله فذكر أنه قد تناول مسهلا ضعيفا ولم ير من حاله ما يدل على الموت [4] .

توفي بعد وصوله دمشق بعشرة أيام ليلة الاربعاع في الحدي والعشرين من شعبان سنة 548 ، ودفن يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان في مقبرة باب الفراديس [5] .

ويرى سبط بن الجوزي [6] أن وفاته كانت في صفر سنة 547 ، ويتابعه في تحديد سنة 547 كتاريخ وفات ابن القيسراني ابن تغري بردي ايضا دون ذكر الشهر[7] ، وإجماع المؤرخين الذين

---

[1] ذيل تاريخ دمشق : 322 ، معجم الأدباء : ج 19 ص 65 ، الروضتين : ج 1 ص 227 .
[2] ذيل تاريخ دمشق : 322 .
[3] ذيل تارخ دمشق : 322
[4] ذيل تاريخ دمشق : 322 ، معجم الأدباء : ج 19 ص 65 ، الروضتين : ج 1 ص 227 -228 .
[5] تاريخ دمشق ، ومرآة الزمان ، وفيات الأعيان , شذرات الذهب .
[6] مرآة الزمان : ج 8 ص 213 .
[7] النجوم الزاهرة : ج 5 ص 302 .

ذكرناهم - منهم من كان معاصرا لابن القيسراني كابن القلانسي وابن العساكر - على تحديد سنة وفاته على أنها سنة 548 يحدوبنا إلى أن لا نقيم كبير وزن لرواية سبط الجوزي ، إلا أن هذا لا يمنعنا من تبريرها ، فنقول لعل الأمر اختلط عليه إذ قرأ أن ابن القيسراني وفد على دمشق سنة 547 ومدح مجير الدين فظن أن وفادته هذه كانت هي التي لقي فيها حتفه ، لا الوفادة الثانية التي وقعت في السنة الثانية - أي سنة 548 ، أو لعله أخذ رواية عن مصدر يثق به - لا ندري ما هو - لأنه يورد رواية ابن القلانسي عن وفاة ابن القيسراني بكاملها تقريبا دون أن يأخذها بالتفتيش أو التأييد ، ورواية صاحب النجوم الزاهرة لا يوثق أليها كثيرا ، فهو متأخر ، وربما يكون نقلها عن سبط بن الجوزي .

الفصل الثالث

آثاره الأدبية وأنواعها ومواضيعها.

ثقافته :-

كان ابن القيسراني ، كما يقول من كتبوا عنه وأرخواله ، ذا ثقافة واسعة متنوعة شاملة لمواضيع مختلفة ، فأساتذته فيهم المنجم المهندس والشاعر الأديب والمحدث ، ظهرت آثارها متفرقة في شعره ، فقد تعلم الأدب والنحو ، فكان أديبا وشاعرا ، فهويحسن علم النجوم والهيئة ، والأحكام ، والأخبار ، والتواريخ ، وعارفا بالهندسة والحساب.

ويبدو أن أكثر جوانب ثقافته ظهورا معرفته باللغة وعلم الحديث ، حتى لقب بشرف الدين والشيخ ، وهما لقبان لهما دلالتهما بتقدم حاملهما في العلوم الدينية ، وتظهر ثقافة ابن القيسراني الأدبية ومعرفته بالمنطق وكلام الأوائل وأخبار القدماء من خلال المنامة التي يصور فيه نفسه ، ويحاورفيها ابا تمام ، وهي تعرف بظلامة الخالدي .[1]

تمرس الشاعر بالكثير من مسميات الحرب ومصطلحاتها ، بحكم البيئة التي عاش فيها ، وهي بيئة لم تكد تعرف السلم في زمنه إلا لماما .

آثاره الأدبية :-

أورد الذين ترجموا له طائفة مختارة من شعره ، ولا سيما العماد الكاتب في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر وياقوت الحموي في كتابه إرشاد الأريب .

أشار الأقدمون إلى ديوان الشاعر [2] ، فذكر العماد أنه أطلع عليه ونظر فيه ، واختار منه ما راقه ، وحلى به أوراق خريدته [3] ، وذكر ابن خلكان أنه ظفر به وهو بحلب ، وجميعه بخطه ، ، ونقل منه أشياء حسنة راقه [4] ، وذكر أبو شامة أنه قرأ فيه ، ونقل منه رسالة كتبها الشاعر إلى نور الدين ، واختار بعض القصائد التي مدحه بها [5] .

جمع ابن القيسراني شعره العزير الذي جاء ديوانا كبير الحجم ، ثم ظل ديوانه محفوظا عند ابنه خالد الذي بلغت عنايته بشعر ابيه أن كان يحفظ معظم شعره وينشده من الذاكرة ، ورأى العماد الاصفهاني هذا الديوان في حجمه الكبير لما اتصل بخدمة نورالدين وتعرف إلى خالد ونقل منه بعض القصائد والمقطعات في الخريدة بعد أن التقت جانبا من شعر ابن القيسراني عن طريق الرواية ، وأهم الرواة الذين اعتمد عليهم صاحب الخريدة :

1 الفقيه علي الخيمي الواسطي الذي لاقه العماد بواسط سنة 553 هـ ، وهوممن اتصل بابن القيسراني في مدينة حلب وأخذ بعض شعره .

---

[1] ظلامة الخالدي ، منامة أدبية عرض فيها ابن القيسراني لمحاورة بينه وبين ابي تمام ، حيث يعرض ابن القسراني نفسه ، حاملا لواء الشعر في زمانه ، وأنه فريد عصره وأوانه ، يأتيه ابو تمام في المنام لينصفه ممن ظلمه ، ونسب شعره إليه ، وتكون المحاورة بأسلوب الشعر والنثر ، ويظهر ابن القيسراني ، وهو يحاور نفسه على لسان أبي تمام ، أنه معجب بشعره ومقلدا له ، أنظر عبد الهادي ، حسن ، وصالح ، محمود : المنامات في الأدب العباسي ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ع 3، 2003 ، ص 63

[2] ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة ، ج ، 5 ص 302 . وابن الكثير : البداية والنهاية : ج 14 ص 31

[3] العماد الكاتب : الخريدة :ج 1 ص 126

[4] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ، 2 ص ،17

[5] أبوشامة : الروضتين : ج 1 ص 18

2 الفقيه عبد الوهاب الدمشقي ببغداد سنة 550 هـ .

3 بعض أصدقاء العماد من فقهاء الشام .

4 . الواعظ الرحبي .

كما أخذ العماد ايضا بعض قصائده عن طريق النقل من الكتب معتمدا على كتاب لمح الملح لابي المعالي الكتبي وعلى كتاب المذيل للسمعاني ، وقد أطلع المؤرخ ابوشامة على ديوان ابن القيسراني في حجمه الكبير ونقل منه عددا وافرا من القصائد في كتاب الروضتين [1]، وأطلع عليه الصفدي يخطه ونقل منه أبياتا متفرقة ، اي أن ديوانه يخطه ظل موجودا حتى القرن الثامن .

ولم يصلنا هذا الديوان الذي وصفه ابن عساكر بكبير الحجم وإنما وصلتنا نسخة من ديوان ابن القيسراني في اربع وثمانين ورقة ، وهي في مجموعها تمثل مختارا صنعه ابن القيسراني نفسه ، إذ جاء في آخر النسخة " هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره " ، ومما نلحظه في هذا المختار أنه خال من مدائحه في تاج الملوك بوري بن طغتكين ومجير الدين آبق وعماد الدين زنكي ونورالدين محمود ، وانه احتوى عراقياته وثغرياته وبعض مدائحه من دون الحكام ، ولا ندري لمن قدم ابن القيسراني هذا الجزء ، ولكن ادراج الثغريات فيه لايدل على أنه صنعه في دورمبكرلأنه أنشأ هذه القصائد في عام 540 اي قبل وفاته بثماني سنوات - على التقريب - وعلى هذا فإنا ان شئنا ان نتمثل شعرابن القيسراني فلا بد من أن يكون معتمدنا بالإضافة إلى الديوان كتاب الخريدة والروضتين ، فهذه الكتب الثلاثة تتكامل معا في أمدادنا بشعره وهي أهم المصادرله ، وربما يكون أن هناك كثيرا من القصائد والمقطعات قد ضاع ايضا ، ومن أول الشواهد على ذلك أن قصائده التي كان يناقض بها ابن منير لم تصلنا ، كما أن هناك قصائد لم تصلنا منها إلا منتخبات أو أبيات قليلة .

لانعرف شيئا عن هذا الديوان الكبير المشهور الذي يجمع معظم شعره وبعض رسائله ، غير أن للشاعر ديوانا آخر صغيرا ، اختار من شعره ، وقصره على الثغريات ، وعلى مقطعات متفرقة عملها عند قفوله من العراق إلى الشام ، يتشوق فيها السكن والوطن بالإضافة إلى بعض المدح الأخرى ، وذكر في ختامه قوله " هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره " والغريب أن الشاعر أهمل إيراد قصائده الطنانة في مدح نور الدين [2]وغيره ، واقتصر على بعض المدح التي قالها .

الثغريات : -

لا نعدو الحقيقة إن قلنا الثغريات أجمل ما في شعره ، وأغلب الظن ان هذه التسمية من اختراع الشاعر نفسه ، او من تلامذته الذين طلب إليهم أن يرووا عنه ما اختاره لهم من ديوانه الكبير ، وقد وردت هذه التسمية في مختاره ، وذكر فيه أنه قالها خلال مروره بالعواصم ، ووصف بها

[1] الروضتين : ج 1 ص 44 ، وغيرها حيث يقول أبو شامة " قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني " .
[2] ياقوت الحموي : إرشاد الأريب ، ج 7 ص 162

مواضع استحسنها وهي الثغريات . ولكننا نحب أن نذكر أن هذه التسمية لم يكن سببها ما مر ذكره ، وإنما هو التصنع البديعي في معني الثغر ، وذلك بدليل ان الشاعر في هذه المجموعة من شعره جانس بشكل لا نظير له في معاني الثغر المعروفة نذكر منها مثلا قوله :

واحربا في الثغور من بلد يضحك حسنا كأنه ثغـــر [1]

وقوله :

ما ذا باطراف الثغـــــــر من بارق على ثغـــــر [2]

وقوله :

أبرق في الثغورمن الثغور وفي نحرالعدوّمن النحور؟ [3]

وقوله :

يا غزال الثغور بالقســـــان أنت من غال ذكره نسياني

أسال السانحات عنك نهـــارا فاذا الليل جنّ جنّ جنانـــي [4]

اتخذ الشاعر من هذه المعاني المستحدثة ، وما فيها من تصنيع بديعي ، وتكلف جناسي وغيره موضوعا خاصا ، سبق فيه غيره ، وأكثر من ذكره ، وهو وصف الفرنجيات والروميات والتحدث من خلالها عن الغثور الإسلامية التي كانت تحت حكم الفرنجة ، ووصف بعض معالمها وكنائسها وحياتها الجتماعية والسياسية خلال زيارته انطاكية عام 540 هجرة .

لا نعرف على الضبط سبب هذه الرحلة في اواخر حياته ، وكل ما نعلمه انه ارتحل إلى الشمال قاصد انطاكية " لحاجة عرضت له " [5] ، ويفتن الشاعر بما يراه فيها من نساء فرنجيات ، ويسحر بالعيون الزرق والشعور الشقر ، والغريب انه كان يتصيد لقاءهن في الكنائس والأديرة ، ولذلك سوف نرى وصفه الرائع لهن من خلال حديثه عند مروره بها خلال رحلته الفريدة .

مر على عزار ، وهو في طريقه إلى انطاكية ، فوصف بنات الاصفر ، ومما قاله :

اين عزّي من روحتي بعـــزاز وجوازي على الظباء الجوازي ؟ [6]

---

[1] المصدر السابق
[2] المصدر السابق
[3] المصدر السابق
[4] المصدر السابق
[5] العماد الكاتب : الخريجة ج 1 ص 99
[6] الجوازي : مفردها جازئة ، وهي الظبية لتجزئها بالرطب عن الماء ، او بالعشب عن الماء

واليعافير [1] ساحبات المعافـــيـ ر [2] علينا كالربرب المجتـــاز

بعيون كالمرهفات المواضـــي وقدود مثل القنا الهـــــــزّاز

ونحور تقلدت بثغـــــــــور ريقها ذوب سكر الأهـــــــواز [3]

ووجوه لها نبوة حســــــــن غير ان الإعجاز في الإعجـــاز

يتحدث الشاعر عن ذكرياته في عزاز، وجوازه على من بنات الاصفر ، وتستعبده بعض المعاني التقليدية والتصنع البديعي في حديثه عن عيون كالمرهفات المواضى ، وعن قدود كالقنا الهزاز ، وعن الثغور والنحور ، وعن حسن الوجوه ، وعن إعجاز الإعجاز . ثم ينفرد بعد هذا الوصف العام بذكر رومية لاحظته ، فأصابت قلبه بطرف انقض عليه ن له قوادم باز ، وسبته بسحرها وشعرها ، وينتهي أخيرا ليتحدث عن هذا الجهاد الفريد في حب بنات بني الاصفر ، اهمل الشاعر في ديوانه المختار جهاد الملوك في حروب الفرنجة ، وخلد جهاده في حبه لأن الجهاد الأول كان – كما يظهر – زلفى إلى أبطال لنيل العطاء ، أما هذا الجهاد فكان بين المحب المسلم والحبيبة الرومية .

ويدخل الشاعر انطاكية ، فيتحدث عن معالمها ، إذ هي أكبر ممالك الصليبيين في بلاد المشرق ، ويصف كنائسها ، ومن خلال ذلك يشبب بمن رآهم من الفرنجات ، ويتغنى بجمالهن الرائع ، نقف مع الشاعر أولا في وصف انطاكية ، ونستمع إليه يصفها لنا قائلا :

واحربا في الثغور من بلـد يضحك حسنا كانه ثغـــــر

ترى قصورا كأنها بيـــع ناطقة في خلالها الصـــــور

هالات طاقاتهن آهلـــــة يبسم في كل حالة قمـــــــر

سوافر كلما شعرن بـــــنا برقعهن الحياء والخفـــــــر

من كل وجه كأن صورتـه بدر ، ولكن ليله شعـــــــــر

فهو إذا ما السلو حاربـــه كان لتلك الضفائر الظفـــــر

فيا عذولي فيهن دع كلفـي وانظر إلى الشمس هل لهاطرر

سرت وخلّفت في ديارهـم فلبسا تمنيت انه بصـــــــــر

ولم أزل أغبط المقيم بهـــا للقرب حتى غبطت من السردا

نلاحظ أن الشاعر تحلل قليلا من تصنعه البديعي ومن بعض ما رأيناه من صور تقليدية ومعان متداولة ، ولعل هذه التجربة العاطفية الجديدة في أواخر حياته أكرهته على التخلي قليلا عما نعرفه من تكلف وتصنع ، لأن شعوره المتوثب ، وعاطفته المتقدة ، وقلبه المنفعل جعلته يعبر

[1] اليعافير : مفردها يعفور وهو الظبي
[2] المعافير : المعافر في التاج يرد معافري منسوب إلى معافر اليمن ثم صار اسما للثياب بغير نسبة فيقال : معافر
[3] الاهواز تسع كور بين البصرة وفارس ، لكل كورة منها اسم خاص ويجمعن على أهواز ولا تفرد الواحدة منهن هوز

بصدق عما في نفسه من إحساس كإنسان ، وذلك أن هذا التعبير الصادق لا يستقيم أبدا مع التكلف والتصنع ، فلا بدع إن راينا الشاعر يتمنى في ختام قصيدته أن يقع أسيرا في هذه الثغور ليحظى بقرب الحسناوات الفربجية ولقائهن في كنائسهن .

أعجب الشاعر بكنائس انطاكية وبيعها ، فشبه بها قصورها المتسعة ، وميز بين كنائس النصارى من أهلها العرب ، وكنائس الفربجة التي بنيت بعد الاحتلال ، تحدث عن كنيسة السيدة وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى أنطاكية خاصة دون الإفرنج ، ووصفها من قصيدتين من ثغرياته ، يقول في إحداهما :

متى عُجتَ يا صاح السيــدة فسل عن فؤادي في الأفئدة

وقلبك حذّروه عن ان يصــاد فإن بها للهوى مصيـــــدة

وجوه تباهي قناديلهـــــــا ببهجة نيرانها الموقـــــدة

ترى كل مستضعف خصره إذا ما دعا طرفه أنجـــــده

وذات روادف عند القـــــيا م تحسبها أنها مقعـــــــدة

فيا لي من ذلك الزبرقـــان إذا زرفن اليل أو جعـــدة

به كل نواشنة لحظهـــــــا يطلق بين يدي عربـــــدة

ولم يكتفي بالكنائس التي رآها في أنطاكية ، وإنما وصف الأديار المنعزلة ، كدير النصارى ، ودير سمعان ، وهوعلى بعد فرسخين من أنطاكية ،

ياهل سمعتم بدير سمعـــــان وما به للعيون من عـــان

أموقف للصلاة هيكلـــــــــه أم منبت من منابت البـــان

في كل غصن تفاحتا خجـــل تلقاك من مثلها ببستـــــان

من ذات بشر تلوح في بشـــر وات جان منها على جـــان

تسجد للشمس وهي معرضة في الأفق عنه بوجه غيران

وانصرفوا والفؤاد أفئـــــدة مع كل نصرانة ونصـران

يا حسن عيد الصليب لو ان كا ن الدهرفيهم اعياد صلبان

نلاحظ أن الشاعر كان يتعمد دخول الكنائس ليتمتع بصره بالراهبات المتبتلات وبغيرهن من النساء المصليات اللوات يلقاهن هناك ، فيعجب بجمالهن الساحر ، ويرى فيه ضربا جديدا من السحر الغربي ، فهو في القصيدة السابقة يتحدث عن معظمة الصليب ، ويختتمها بالحديث عن قديسها ، ومن خلال ذلك نلاحظ تشخيصه الرائع للصليب ، وهو في ذلك يبدع لنا صورة شعرية في غاية الجمال الفني .

ويعجب الشاعر بالغواني النصرانيات اللواتي كن يترددن على الكنائس ويصف منهن القديسات ، ويتحدث عن إعراضهن عن مباهج الحياة الدنيا وانصرافهن إلى إقامة الصلاة :

كم بالكنائس من مبتلـــــــــة مثل المهاة يزينها الخفـــــــر

من كل ساجدة لصورتهـــــا لو انصفت سجدت لها الصور

قد يسة في حبل عاتقهـــــــا طول وفي زنارها قصـــــــر

غرس الحياء بصحن وجنتها وردا سقى اغصانه النظـــر

وتكلمت عنها الجفون فلـــــو حاورتها لأجابك الحـــــور

وحكت مدارعها غدائرهـــــا فاراك ضعفي ليلة قمـــــــر

ويقع الشاعر في حب جارية رومية حسناء تغني بالدف اسمها ماريا وهي من مولدات انطاكية ، وكانت " خفيفة الروح في نهاية اللطف " ومن أصواتها التي كانت تغايظ بها النصارى من ملتها ، وتستميل بها قلوب المسلمين هذا اللحن :

علقت بحبل من حبال محمد أمنت به من طارق الحدثان

لكنه ابتعد عنها حتى إلى لقائها ، فبعث إليها يقول :

ألا يا غزال الثغرهل انت منشدي علقت بحبل من حبال محمـــــد

وياهل لذاك اليوم في الدهرليلـة تعود ولوعادت عقيما بلا غـــد

فألقاك فيها هادئ الكاس حـــاديا وحسبك من ساع بها ومغـــــرد

ألا حبدا عاري المحاسن عاطـل محلى باثواب الملاحة مـــــرتد

إذا ما الأماني ما طلتني بوعدهـا ذكرت له وصلا على غيرموعد

وعهدي بماريا ، سقى الله عهدها بما عندهامن حاجة الهائم الصدي

وفي ذلك الزنار تمثال فضـــــة تنقط خديه العيون بعسجـــــــد

فيالي من وجه كقنديل هيكـــــل عليه من الصدغين محراب مسجد

لقد أسرتني حيث لا ابتغي الفـــدا فقل في أسير لا يسربمفتـــــــــد

ينادي الشاعر حبيبته ماريا ، وهي بعيدة عنه ، ويود لو يسمع لحنها المشهور ، ويتمنى أن يعيد الدهر لذلك اليوم ليلة العمر ، ولن يأس بعدها إن جاءته عميقا بلا غد ، ويكفيه من الحياة أن يلقاها ، وقد حملت إليه الكأس دهاقا ، وأسمعته صوتها الساحر ، وينتقل ليتحدث عن محاسنها وملاحتها ، فيصف لنا مفاتن جسدها ، وقد تمثله في حلقة زنارها كتمثال م اللجين ، تنقط خديه العيون بعسجد ثم يتغنى بعد هذا الوصف كله بوجهها المشرق في جنح اليل مجعد ، وبذكر

اعراضه أخيرا ان زجاجة الخمر لأن ماريا سقته رضا بها من إناء مورد ، وتأخذه النشوة ، ويرسم لنا صورة الوجه والصدغين ، كان لحسن التعليل فيها أوفر نصيب في تصنعه البديعي : صورة وجه ماريا المشرق ، وعلى طرفيه صدغاها الساحران ، وقد تمثل الشاعر كل ذلك في صورة أحاطها بإطار ديني موفق ، يظهر من خلاله قنديل هيكل بيعة متعلق في حندس اليل ، وعليه محراب مسجد مزخرف ، نمنمته الصنعة العريقة الانيقة .

جمع الشاعر في هذه الصورة المبتكرة بين المعاني الإسلامية والنصرانية على حد سواء ، وقد لاحظنا مثل هذا الجمع كثيرافي شعر المتصوفين والزهاد كابن عربي وغيره

أكثر الشاعر من هذه المعاني في شعره ، ولسنا بمبالغين إن قلنا إنه بلغ من ذلك مبلغا لم يدرك شأوه فيها أحد من شعراء هذا العصر ، من ذلك قوله وصف حبيبته ماريا :

إذا ما زرت ماريا فما سعدي ، وماريا

فتاة كقضيب البــا ن يثنّيها الصبا طيّا

تلوّى ، كالمواعيد أطالت عمرها ، ليّا

لها وجه مسيحــي ترى الميت به حـيّا

إذا ما قابلته الشمـ س لم تبصر به فيّـا

فيا أحسن من أعـر ض إدلالا ومن حيّا

أتنسين وحبـــــاكِ فتى قلتِ له : هــيّا

فلو نظهروسم [1]الحـ بّ أبصرت له كيّا تؤكد هذه القصيدة تأثر الشاعر بالمعاني المسيحية ، وتوضح لنا إعراضه عن المعاني التقليدية في الغزل والنسيب ، وذلك أنه لا يطرب لذكر سعدى وريا ، وإنما كل همه مغنية رومية من مولدات أنطاكية .

لاحظنا في عرض شعره مذهبه الفني ، كما عرفه معاصروه ، وكما نحاول ان تتعرف الآن في هذا البحث .

تتلمذ ابن القيسراني على شاعر عصره ابن الخياط ، وهو الذي اعتمده في رواية ديوانه لأنه آنس فيه التلميذ العبقري الذي ائتمنه على التقيد بالمذهب الشعري المعروف ، وهو مذهب تصنع التطبيق والتجنيس .

وجدير بالذكر هنا أن هذا المذهب الشعري تطور حتمي للمدرسة الشعرية المعروفة في بلاد الشام من قبل ، وهي التي بدأت بأبي تمام وتلميذه البحتري من بعده ، وقد سئل عن نفسه وعن

[1] الوسم : العلامة وأثر الكلى

أستاذه فقال : "أعوض على المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر " [1] علق عامدي على جوابه بقوله : " وهذا الخبر هو الذي يعرفه الشاميون دون غيره " [2].

عرف النقاد الاقدمون في شعره هذا المذهب الذي كان منتشرا في بلاد الشام ، ولاحظوا إكثاره فيقصائده من التصنع البديعي وبخاصة منه : الجناس والطباق ، وقد ذكر عماد الكاتب في وصف إحدى قصائده انها " قطعة مجنسة في لطافة الهواء ، مالكة رق الأهواء ، خلصت من كلفة التكلف ، وصفا مشربها عن قذى التعسف ، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلما يتفق فيها الابيات المطبوعة ، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر ، والفكر الحاضر ، والقريحة الصافية ، والآداب الوافرة الوافية ، وربما يندر للنظام مقطعات يرزق فيها القبول ، كهذه القطعة التي تسلب العقول " [3]

أصاب العماد في بعض هذا القول الحقيقة ، فالأشعار المصنوعة قلما يتفق الأبيات المطبوعة ، وقد لاحظنا أن الشاعر كان يتخذ في بعض قصائده هذا المذهب ، ويظهر فيه التصنع والتكلف ، بيد أنه كان يقتصد في الصنعة أحيانا كما في ثغرياته ، لأنه كان يستجيب لنداء العاطفة الصادقة ، هكذا كان الشاعر في صنعته ، مطيوعة تارة ومتصنعا تارة أخرى ، وعلى ذلك ذاع صيته بين معاصريه فكان رائدا من رواد مذهب التصنع البديعي في هذا العصر .

شخصيته الشعرية : -

يكفي للتوضيح موضع شخصيته الشعرية بين الشعراء البارزين في عصره الفهم عن تصنعه في نطاق يضم ابن الخياط واسامة بن المنقذ وابن منير الطرابلسي والعرقلة الدمشقي .

فأما ابن الخياط فهو شيخه واسامة أحد ممدوحيه وابن منير معاصره ومنافسه والعرقلة تأخر عنه ولحق بعصر صلاح الدين ، وكل هؤلاء الشعراء يجتمعون على أن القصيدة مبنى طويل ، وأن الطويل فيها - خاصة في شعر المدح - مما يميز الشاعر ويوشح شعره بالقبول ، ثم ينفردون في المذهب العام .

فأما ابن الخياط فأن ديدنه الشكوى من الزمان وتقلب الحدثان ، وهو يدور على هذا المحور حتى يلون بمعاني الشكوى نظرته إلى الحياة والناس ، فهومتألم متشائم منقبض لالحاح الحرمان ، وبخاصة في اول عهده .

وأما أسامة فأنه سليل أسرة عظيمة النفوذ ، وهو بطل محارب ولذلك فإن جانبا من شعره حديث عن تجاربه الخاصة ، فإذا تحدث عن المعارك والانتصارات تحدث عنها بلسان الفخر ، وهو على نزاع مع الأقارب ، فنظرته إلى الإغتراب عنهم والحزن عليهم بعد أن فقدهم تمثل صراعا عميقا ، يضع صاحبه بين كبراء الغضب وندم النادم ، وبقدر تفوقه في البطولة الحربية تجد شعره في الغزل كله ضربا من التذلل الضارع والتظلم ، فهو بطل المعركة وأسير الحب

[1] الآمدي : الموازية
[2] المصدر السابق
[3] العماد الكاتب : الخريدة ، ج 1 ص 98

المعذب المظلوم وقد أدركته الشيخوخة وبلغ من العمر عتيا فشهد في الحياة تجربة التغيير العميق بين القوة والضعف ، وبين الانس بمن عرف من لذات والأسى على من تولوا قبله واحدا أثرواحد ، ولذلك كان شعر أسامة ممثلا لهذه النفسية العامة من جموع نواحيها .

فأسامة يشبه ابن الخياط في انه يحب الابتعاد عن زحرف اللفظ ، مثله في أنه يستمد ممن تقدمه من الشعراء فيغرق في إبراز المعاني وتوليدها ويعارض ويقتبس كثيرا .

وأما العرقلة إن له شخصية النديم ، وكان لطيف النادرة مستطرف الهجاء ، وعلى أن له مدائح طويلة ، فإن اللون المميز له هو المقطعات الحادة التي يذهب فيها مذهب النادرة الساخرة أو الهجاء المقذع ، وتحت هذا اللون نظرة قريبة الشبه بنظرة ابن الخياط في النقمة والتشاؤم .

وأما ابن منير فقد شهد له النقاد أنه كان والقيسراني فرسي رهان ، عاشا في بيئة واحدة وحاما حول ممدوحين باعيانهم ، وتناقضا في الأهاجي وتخالفا بين التشيع واتباع السنة ، إلا أن أسامة بن منقذ اتهم ابن منير بانه " كان مغوار على القصائد يأخذها ويعول في الذب عنها على ذمه للناقد أو للجاهد" [1]،

وعلى هذا فإن شخصية أبن القيسراني الشعرية بين هؤلاء الشعراء لا تتمتع بنقمة ابن الخياط ولا بتجربة اسامة ولا بسخرية العرقلة وإنما هي قريبة الشبه بشخصية ابن منير الشعرية من حيث المظهرالعام في القصائد المدح ، ولذلك لم تكن له فلسفة خاصة دقيقة في شعره ، وقد شارك ابن منير في موضوع المدح وفي الغزل بالغلمان ووقف ندا له في الهجاء وتفرد عنه في ناحيتي مقطعات الحنين ووصف البيئة المسيحية بانطاكية ، وإذا استثنينا بعض العبث الذي فرضته روح العصرفي التغزل بالغلمان كانت شخصية ابن القيسرني شخصية هادئة مستوية لا تعقيد فيها ، شخصية الشاعر " المحترف " الذي يريد لشعره حاميا يكفل له العيش ، فغزله ذو نسق جميل ولكنه ضحضاح في جملته ، ومدائحه ايضا ذات نسق جميل لكنها - في غير موضوعات الجهاد - تشبه الخط المستقيم فليس فيها حركة قوية ، وإنما هي قائمة على الاسترسال والعذوبة الموسيقية .

مصادر الصورة التراثية في أشعاره :-

إن للتراث أهمية كبيرة عند الشاعر ، فمنه يستمد موضوعاته الشعرية ، ليخلق واقعا جديدا ممزوجا بالماضي ، باعتبار أن التراث هو ما توارثه الأبناء عن الآباء في بعض مناحي الحياة ، وقد استطاع هؤلاء الشعراء من خلال الإشارات التراثية أن يعبروا عن رؤاهم الإنسانية والحضارية ، وأن يعيدو رسم الواقع ، وفق رؤية تتسق مع الحاضر ، وتكشف عن شهادة إبداعية حية تتصل به ، وتستحضر أبعاده ، بكل ما فيها من هزيمة وانتصار ، وحلم في صنع المستقبل إنساني أفضل .

وتوظيف التراث عند الشعراء يتخذ أشكالا متعددة ، فمنهم من يوظفه بدواعي المناسبات التي لها صلة بقضايا الوطن ، وذلك لشحذ الهمم على التمرد للتغيير هذا الواقع الأليم ، ولكي يؤكدوا

[1] الخريدة : ج 1 ص 77 .

روح السيادة والحرية في ضمير أبناء وطنهم ، راحوا يذكرونهم بأجدادهم كيف حكموا ، وكيف قدموا للحضارة أفضل مقوماتها ، وكيف كانوا سادة الدنيا وقادتها ، ومنهم من استلهم التراث ووظفه في شعره للتكسب والتقرب إلى الشخصيات المهمة ، وبلوغ المراتب الرفيعة ، يضاف إلى ذلك تعود الشعراء استلهام التراث تلبية للذوق السائد ، أو حبا للتقليد [1].

وعند تتبعي محتوى شعر ابن القيسراني وجدت الشاعر وطنيا بارزا، معتدابنفسه ، يدافع عن وطنه بشعره ، محرِّضا وحاثا القادة والجنود للمقاتلين للدفاع عن الوطن والدين ، مذكرا إياهم بحالة البلاد آنذاك وما تعانيه من استعمار ، وظلم ، وتوجيع ، وتشريد ، وإذلال ، وخضوع للفرنجة ، ومن نهب خيرات البلاد . وقد كانت هذه الأوضاع بعامة المثير الرئيسي لقريحة الشعراء ، فحضتهم على التمسك بماضيهم المشرف ، وتاريخهم العريق ، وتراثهم الأصيل .

ومن خلال رصد الخطوط الداخلية التراثية الواردة في شعر ابن القيسراني ، يظهر أنه كان على علاقة وثيقة به ، يستظهر منه ما يوافق مضمون قصيدته ، فيشعر قارئ النص أنه والتراث متلازمان ، باعتبار أن النص الذي لا يقبل هذه الظواهر التراثية نص عقيم ، يقول رولان بارت : " إنه نص بلاظل لأن النص الحقيقي في حاجة إلى ظله بشكل لازم ". [2]

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر قد إفاض في هذا المجال باستعمال تقنيات التضمين ، مشكلا بذلك ما يعرف بالتناص ، حسب المفهوم النقدي الحديث ، وكأن هناك اتحادا وتزاوجا في الأحكام ، والاعتماد الواعي فيما يفعله الشاعر في إبداعاته الشعرية بين وضعياته الذاتية من جهة واقتباساته من جهة ثانية .

ويمكن تصنيف المصادر التراثية التي وظّفها ابن القيسراني في تشكيل صوره الفنية إلى المصادر الآتية:-

1- أحداث وقصص تاريخية :-

لقد جاء هذا النوع من الصورة لإستحضار أحداث وشخصيات تركت بصمات واضحة في مجرى التاريخ ، وغدت متداولت بين الناس ، فهذا ابن القيسراني يستضحر قصة داحس والغبراء في رسم صورته الفنية ، في إشارة منه إلى كرم ممدوحه وجوده ، حيث يؤكد الشاعر رفعة ممدوحه وعلو شأنه ، فضلا على سخاءه وجوده ، وأنه مهما حاول حساده وأعدائه طمس هذه الحقيقة فإن سخاءه يفضحهم ، ويرفع من شانه ويعلو رايته بين الناس ، وأنه مهما حاول الناس مجاراته وسبقه في البذل والعطاء ، فإنهم لن يستطيعوا ذلك ، لا سيما أنه لا يوجد بينهم من ندّ له ، مثلما لم يوجد لداحس والغبراء ندّ لهما في السرعة ، فالشاعر يقابل صورة الممدوح في بذله وعطائه بصورة داحس والغبراء في سرعتهما ، وعدم الفترة في اللحاق بهما ، مثل قوله :-

يا ذا المناقب كلما اجتهد العدا في كـتمها نمّت بهـــا الآلاء

عقد الرهان على لحاقك مـعشر لا داحس فيهم ولا الغبراء

[1] مكنا ، محمد عيسى : الصورة الفنية في شعر رواد الرابطة القلمية ، دمشق : ص 122
[2] بارت ، رولان : لذة النص ، باريس : دار لوسوي ص 132

ويستخدم الشاعر في قصيدة أخرى ثغور الشام ويوظفها في صوره الفنية ، فيكشف عن سرورها برجوعها إلى المسلمين بعد عناء طويل في ظل الاحتلال الإفرنجي لها مرة أخرى ، ويقارب بين فرحتها وفرحة القدس يوم دخلها عمر بن الخطاب فاتحا ، يقول :

لا فارقت ظل محيي العدل لامعة كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا

ولا انثنى الـنصرعن أنصار دولته بـحيث كـان وإن كـانـوا بـه نصـروا

حتى تعـود ثغـورالـشام ضـاحـكة كـأنمـا حـلّ فـي أكـنافـهـا عـمر

فهو يقرن شخصية ممدوحه عماد الدين بشخصية عمر بن الخطاب ، ويشير إلى طبيعة الشراع بين المسلمين والصليبين ، إلى أن انتصارات الممدوح هي امتداد لمعارك الإسلام وملاحمة الكبرى السابقة .

وقد جاءت هذه الصورة الفنية إيجابية بعيدة عن التكلف والتصنع ، لتربط بين الماضي والحاضر ، ماضي العدل الذي حققه الخليفة عمر في ذلك الوقت ، بحاضر عماد الدين زنكي الذي سوف ينشر العدل كما نشره أسلافه .

واستوحى ابن القيسراني التراث في رسم صورة للعدو الصليبي ، فها هو يستحضرقصة هلاك ثمود ، ليصور من خلالها هزيمة الفرنجة وما لحق بهم وبحصنهم من دمار وتخريب ، يقول :

وعارم يوما بالعريمة فاغتدت كوادي ثمود إذ رغا فيه سقبه

فالشاعر في هذه الصورة اختار لفظة (عارم) التي توحي بالشدة والبأس ، لتوضح الشبه بين العذاب والقتل اللذين لحقا بالفرنجة على يد نور الد ين في حصن العريمة ، بالعذاب والمحق الذي أصاب ثمود حينما كذّبوا نبيهم صالح عليه السلام ، وأقدموا على قتل الناقة وابنها ، وكيف أن الله محقهم بصيحة من السماء ، فتركتهم في ديارهم جاثمين ، وهي صورة تبرز الجانب الديني في هذه الحرب بين المسلمين والصليبين ، والنظرة التي نظر فيها الشعراء إلى أولئك الأعداء .

2- **توظيف الشخصيات التاريخية** :-

يعمد الشاعر إلى توظيف الشخصيات التاريخية ، لتكون تعبيرا عن مواقف يريدها ، أو ليحاكم العصر ونقائصه من خلالها ، وهو في ذلك يختار الشخصيات التي تتلاءم مضمون تجربته ، فيتصل بها اتصالا عميقا ، وتكون استلهاماته التارنخية صورة رامزة لقضايا الأمة ، حيث يخبئ الشاعر فيها لون فكره وخطوط رأيه .

خضع ابن القيسراني لظروف جمة شكلت في مجموعها دوافع للرجوع إلى التراث ، ووضعته أمام حاجة ملحة للاستفادة من إمكاناته ومخزوناته ، فقد استحضر الشاعر العديد من الشخصيات التاريخية في رسم صورة فنية ، فبرزت بجلاء في الحديث عن ممدوحه عماد الدين ونور الدين ، ولعل أهمها شخصية الخليفة عمر بن الخطاب . للدلالة على العدل الذي سينشره عماد الدين في بلاد الشام كما نشره عمر بن الخطاب عندما فتح القدس .

ويستحضر الشاعر عدل الخلفاء الراشدين ، ليؤكد عدل ممدوحه نور الدين ، فيقول :

قد فضحت الملوك بالعدل لما سرت في الناس سيرة الخلفاء [1]

ويقدم الشاعر ممدوحه الوزير جمال الدين الأصفهاني [2] في صورة فنية ، بطلا في الخطابة فضلا عن كونه بطلا في الحرب ، فقد أخذ من فصيح الكلام حتى فاق خطباء العرب المشهورين ، ويستضحر في هذا السياق شخصيتي قس بن ساعدة الإيادي وسبحان وائل ، فيقول : -

وإذا انتـضـوا أقـلامه لِـملـمّـةَ أبصرتَ من كتّابه فرسانه

وثنى الخطاب إليه فضل فصاحة لاقســـها منـــه ولا سحبانـه

ويشيد الشاعر ببلاغة ممدوحه ، التي فاقت بلاغة بلغاء عصره ، فجوابه في خطابه يذهل الحاضرين فصاحة وإقناعا ، فيبدو الفصيح أمامه عييّا إذا ما قورن به ، وهذا يستضحر الشاعر شخصية باقل الإيادي [3] لتكتمل عنده الصورة ، فيقول :

ويذهل الناطق عن جوابه حتى ترى كل فصيح باقلا

ويوظف الشاعر الصورة الفنية في غير موضع لإبراز شخصية حاتم الطائى ، ليؤكد أن ممدوحه لا يقل كرما وسخاء عنه ، بل إنه يفوقه ، ذلك أن الطائي يكرم الناس بما يستطيع تعويضه من مال وكساء وطعام ، في حين يضحي ممدوح الشاعر بنفسه من أجل غيره ، ويظهر سخاء الممدوح في تقديمه للضيف أفضل ما عنده ، وأكثر شيئ يحبه للضيف ، فالممدوح يكرم السيف بأطيب ما يشتهي ، فيسقيه من دماء الأعداء في ساحة المعركة ، ولا يدعه حتى يرتوي ، يقول :

من كل منصور البيان بعجمـــــــــة وهل الأسود الغلب غيرأعاجم

أو مفصح يقري الصوارم في الوغى أسخى هناك بنفسه من حاتـم

3 - استحضار معاني السابقين وصورهم :-

كان لمعاني الشعراء السابقين وصورهم دور مهم في تشكيل صور ابن القيسراني ، حيث أتيح له بواسطتها ، نقل أحاسيسه الوجدانية وتجربة الفنية إلى الجمهور المتقلى ، عبر عملية استحضار انتقائية مركزة لبعض الصورة الفنية .

---

[1] العماد الكاتب : الخريدة

[2] جمال الدين أبو جعفر محمد أبي منصور الأصفهاني ، كان وزيرا لسيف الدين غازي ثم أخوه قطب الدين مودود ، من أكثر الناس سخاء وجودا ، يعزي إليه بناء الحجر بجانب الكعبة وزخرفتها وتذهيبها ، وشى به بعض حساده إلى قطب الدين فسجنه ، وبقي في سجنه حتى مات سنة 559 هجرة . انظر : ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبي الكرم ، الكامل في التاريخ : ج 9 ص 471

[3] باقل الأيادي : جاهلى ، يضرب المثل بعيه وحمقه ، أنظر ترجمته في الثعالبي ، أبو منصور : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . ص 86

فقد استحضر الأخطل في صورته الفنية فوران الخمر وتصاعد حبيباتها داخل الكأس ، بقطعة من الحطب تأكلها النار ، إذ قال :

فصبّوا عقارا في إ ناءٍ كأنها إذا لمحوها ، جذوة تتآكل [1]

ويصور أبو نواس الخمر إذا مزجت بالماء ، وتصاعدت حبيباتها على وجه الكأس بحبيبات الدار ، وقد علقت على شبكة الصياد الحمراء التي بشبه العقيق لونا ، إذ قال :

كأنها بزلال المزن إذ مزجت شِباك در على ديباج ياقوت [2]

ويستحضر ابن القيسراني صور أبي نواس الفنية ، فصور الخمر وقد مزجت بالماء ، وتصاعدت حبيباتها على وجه الكأس بحبيبات الدر ، قال :

إذ الماء أهدى لها لونه رأيت العتيق وقد حال درا [3]

وقد كان لابن القيسراني وقفات أخرى مع صور اللهو والمجون ، في وصفه الغلمان ، والخمر ، والبكر ، والشمس ، والصهباء ، والساقية ، فقد أخذ ابن القيسراني هذه الأوصاف وضمنها في ضعره وفي تشكيل صوره الفنية ، محاولا التجديد فيها ، وتنسيقها تنسيقا جديدا ، يتلاءم وعاطفته وأحاسيسه ن ذلك أن " المعاني الشعرية ليست سوى خواطر المرء وتجاربه وأحوال نفسه ، التي يكون أقدر من غيره على التعبير عنها بأسلوب جميل موح " [4]

وعلى الرغم من تؤثر ابن القيسراني بمعاني السابقين وصورهم ، إلا أن اهتمامه بصور أبو تمام والمتنبي كان واضحا جليا في معظم قصائدهم الحربية .

يقول ابن القيسراني مادحا تاج الملوك بوري صاحب دمشق ، مصورا هزيمة الفرنجة بعد انتصاره عليهم:

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا

فالصورة الفنية في هذا البيت ، إنما هي صورة أخرى من قول أبي تمام في معركة عمورية :

أحسي قرابينه صرف الردى ومضى يحث أنجى مطاياه على الهرب [5]

فهذه الأبيات تصور الأعداء منهزمين لا يلتفتون وراءهم ، أموالهم وصلبانهم رمز دينهم وحربهم ، ومن شدة خوفهم يتخيلون أن كل مخلوق على الأرض رجل يريد قتلهم .

ويأخذ ابن القيسراني صورة المتنبي في إظهار كرم ممدوحه ، الذي يصح بصحته ، واتراز مجده الذي يتعافي بعافيته ، في قوله :

---

[1] الأخطل ، غياث بن عوث ، تحقيق : مهدي ناصر الدين : دار الكتب العملية ، بيروت
[2] أبو نواس : الحسن بن هانئ . **الديوان**
[3] محمد عادل : شعر ابن القيسراني
[4] نمر ابراهيم موسى : شعر الحرب في العصر الأيوبي : دار البيرق العربي للتشر والتوزيع ، ص 158
[5] أبو تمام ، حبيب بي أوس : الديوان ، ج 1 ص 68

وإذا صح فالزمان صحيح وإذا اعتل فالزمان عليل [1]

وفي قوله :

المجد عــوفي إذا عوفيتَ والكــرم وزال عنك إلى أعدائك الألم

صحّت بصحتك الغارات وابتهجت بها المكارم وانهلت بها الدّيم [2]

وفي قوله :

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الارض ومن فوقها والبأس والكرم والمحض [3]

فإن ابن القيسراني قد جعل الرجاء يصح بصحة ممدوحه ، ويعتل الندى والكرم باعتلاله ، يقول :

من إذا حمّ فقد حم الندى وإذا صح فقد صح الرجاء [4]

ولعل من أفضل الشواهد على اتباع القيسراني للمتنبي ، قصيدته التي عارض فيها المتنبي في مدح وزير الموصل أبي جعفر الاصفهاني ، إذ قال :

أما آن أن يزهق الباطل وأن ينجز العدة الماطل [5]

فهي تناظر قصيدة المتنبي التي مدح بها سيف الدولة ، ومنها :

إلام طماعية العادل ولا رأى في الحب للعاقل [6]

4 - الطبيعة : -

توافرت لابن القيسراني الطبيعة المحسوسة في موطنه بكل ما فيها ن إضافة للطبيعة الإفرنجية ذات القصور والمعابد والكنائس ، والمنشآت الحضارية العريقة ، فكان من الطبيعي أن يتأثر بهذ الطبيعة ، ويقوم بوصف ما فيها من رياض ومتنزهات وأنهار ، ولما كانت صور الطبيعة متشعبة في شعره ، كان من الأفضل تقسيمها إلى قسمين رئيسين : أولهما : الطبيعة الصامتة والثاني : الطبيعة الحية .

أولا : الطبيعة الصامتة :

[1] المتنبي ، أحمد بن الحسين : الديوان ، ج 3 ص 156
[2] المصدر السابق
[3] المصدر السابق
[4] محمد عادل :شعر ابن القيسراني
[5] المرجع نفسه
[6] المتنبي ، أحمد بن الحسين : الديوان ، ج 3 ص 21

تناول ابن القيسراني الطبيعة الصامتة ، واتخذ منها موضوعات صوره ، حيث حفل شعره بكثير من الصور التي عشقها ، وعبر عن عشقه لها بشعر ضاع صوره من كل ما وقعت عيناه عليه ، بحيث ارتبط هذا الشعر بمعاناته وغربته وعشقه وأساه ، وأول هذه الصور الماء :

تتبدى صورة الماء جلية واضحة لديه ، بكل ما يتصل به من مطر وغمام وبرق ، وقد وظف الماء في غير موضع مثل : وصف الطبيعة والغزل والمدح .

ففي وصف الطبيعة صور الشاعر بركة ماء ، يداعب النسيم صفحتها ، مظهرا الانسجام والألفة بينهما ، فيطرب الماء ويرقص إذا مر النسيم عليه وقبل صفحته ، وقد أحسن في البيت الثالث ، حيث صور ريح الصبا والماء عاشقين التقيا فتعانقا ، فتكسر وجه الماء نتيجة هذا اللقاء ، ويتجعد ثوب المعشوقة عند لقاء معشوقها نتيجة ضمها وتقبيلها بشدة ، يقول :

أو ما ترى طرب الغديـ رإلى النسيم إذا تحـــرك

بل لو رايت المـــاء يلعـ ب فـــــي جوانبه لسرك

وإذا الـــصبا هبت عليـ ه أتاك في ثوب مفـــرك

وجاءت صورة الماء الفنية ممتزجة بمشاعره وذكرياته في أثناء وصفه منطقة حسينة ، مصورا جمال هذه المنطقة بما فيها من خضرة وغدران ماء ، فالشاعر يصور منطقة (حسينة) بأجمل صورته ، وأبهى منظر، وهي تذكره بمحبوبته التي لا تقل جمالا عنها ، و(حسينة) منطقة مرتفعة ، تحيط بها الرياض من كل جانب ، وهذا ما يشير إليه قوله (ملفّعة) ومما يزيد الصورة وضوحا جعل هذه المنطقة المخضرة بجانب غدران المياه التي هي أساس حياة هذه الرياض .

فاالشاعر وصف هذه الروضة بما فيها من ماء وخضره ، وأضاف إليها الوجه الحسن ، وجه محبوبته التي تضاهي الروضة جمالاوتأنقا ، يقول :

ذكرتك في حسينة والروابي ملفعة الـــمناكب بالـــرياض

ورعن الكثب مخضرالمجاني على الغدران مترعة الحياض

ويصورالشاعرفضل ممدوحه أصحابه بالعلم والجود ، بفضل النهر على البحر الذي يمده بالنعم والخيرات ، يقول :

عمّمتم المجد بالنعمى وهم بكم بحر يمد المعاني منه أنهار

ثانيا : الطبيعة الحية :

كان للمرأة نصيب وافر في صور ابن القيسراني الفنية لاسيما في ثغرياته ، فوصفها جسدا كاملا ، وأجزاء من جسدها كالعيون ، والأرداف ، والشعر وغيرها ، وتحدث عن شغفه وتعلقه بها ، وحبه إياها :

ومن صور الشاعر الجميلة تشبيه رضاب ماريا بالخمر ووجهها المورد بزجاجة الخمر الوردية ، ثم شبه إشراقة وجهها بين صدغيها المنسدلين علبها بقنديل هيكل مصئ في محراب مسجد ، ويظهر إبداع هذه الصورة في توضيحها ، مجانسته بين مورد في الشطرين ، حيث يبدو للوهلة الأولى أن مورد هي صفة للفم ، مع أنه يقصد بالإناء المورّد كامل الوجه ، ليجانس بين الإناء ذي الشكل الدائري الذي يشرب منه ، وبين الوجه الدائري الذي يزيّنه الفم الذي تسقيه منه رضابها ، وهذا ما يفسره البيت الأخير ، حيث إنه يصف الوجه بأنه قنديل هيكل وضّاه ، بحيث يظهر منه الفم وكأنه محراب مسجد ، رمز المصلين المقبلين عليه من كل اتجاه ، كما هو فم محبوبته الذي هو قبلة العشاق من كل ناحية ، كأنها عاهرة : يقول :

وكنت إذا عفت الزجاجة موردا سقتنـــي رضـــابا فـــــــي إناء مـــورّد

فنا لي من وجه كقنديل هيكل عليه من الصدغين محراب مسجد

وينبهر الشاعر من جمال النساء في منطقة "عزار "، فيصف حسن وجوههن ، وجمال عيونهن ، واعتدال قامتهن ، ودقة خصورهن ، وتسريحة شعورهن ، ويصور تلك النساء وهي تجر ثيابها الطويلة بالظباء ، وهن يسرن بجموعات كقطيع البقر الوحشي في سرعتها وحذرها ممن حولها ، وعيون هذه النساء حادة ، شبهها بالسيوف المواضي ، وأجسادهامن لينها تهتز مثل الرمح الطري اللذن ، مع دقة في الخصر ، وينهي الشاعر صورته الفنية برسم آخر خطوطها ، عندما تنظر إليه ، فيتعلق قلبه بها كما يتعلق الطير بفريسته ، منشّبا أظفاره بها ، مستسلمة له دون حراك أو مقاومة . إذ قال :

أين عـزي من روحتي بعزار وجوازي على الظباء الجوازي

واليعافير سـاحبات المغا فير علينا كـالرّبرب الـــــمجتاز

بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل الـقنا الـــــهزّار

لاحظتني فانقضّ منها على قلـ بـي طـرف لـه قـوادم بـــاز

من معيني على بنات بنـــي ال أصفرغزوا فإنني الوم غـازي

ويصور ابن القيسراني ممدوحه بالأسد في قوته وسطوته ، ويصور الفرنجة بالذئاب الضعيفة ، التي لا تساوي شيئا بحضور الأسد ، يقول :

فلا تحفلن بصول الذئاب وقد زار الأسد الباسل

مصادر الصورة الدينية :-

يظل الدين على مر الأزمان ينبوعا يستنطق حس الأدباء والكتاب ـ فيلجؤون إليه مقتبسين ، أو مستشيدين بنصوصه ، فيضفي بذلك مسحة روحانية على أدبهم نثرا كان أو شعرا او على كتابهم المختلفة ، فالقرأن الكريم والسنة النبوية ، مصدران يستمد منهما الشعراء نماذج

وموضوعات ، وصورا أدبيا ، وقيما إنسانيا ، يستهوي بها كل مقبل على الشعر لصقل شخصيته وحسه معا .

1- القرآن الكريم : -

يعدّ القرآن الكريم من أهم المصادر التي أقبل عليها الشعراء في تشكيل صورهم الفنية ، فاقتبسوا كلماته ، واستلهموا عباراته ، وتمثلوا بنظمه ، واستوحوا قصصه ، واستنضاءوابعبره ، فهو دائما وأبدا منهل عبق ، ونبع صاف ، ونبراس هاد ، ومع اختلاف اشعراء في ملكاتهم وتباينهم في أساليبهم وطرائقهم تنوعت التأثيرات القرآنية في أشعارهم .

ويظهر أثر القرآن الكريم في صور ابن القيسراني الفنية في مدح نور الدين أثر انتصاره على الفرنجة في معركة " إنّب " سنة 544 هجرة ، مؤكدا أن انتصار نور الدين على أعدائه ، كان بسبب تقواه ، واعتماده على الله ، يقول :

كذاك من لم يوقِّ الله مهجته لاقى العدا والقنا في كفه قصب

فنور الدين محارب رباني يحوطه الله بعنايته ، واثقا بنصر الله له ، لأن النصر من عند الله ، وليس بكثرة العدّة والعتاد ، وأن الأسلحة مهما كانت كثيرة ومتنوعة ، فأنها لا تساوي شيئا في يد المحارب ، إن لم يكن معتمدا على الله في طلب النصر ، وقد نصر الله نور االدين بتقواه واتباعه أو أوامره ، وحضه الناس على ذلك فاستحق نصر الله ، وقد اسنوحى ابن القيسراني في معانيه من قوله تعالى :

إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [1] ، وقوله تعالى : **إن ينصركم الله فلا غالب لكم** [2]

ويشيد الشاعر في صورة فنية أخرى بحكمة ممدوحه وعلمه ، مشيرا إلى علم النبي داوود وحكمة النبي سليمان في إشارة إلى قصتهما مع صاحب الحرث [3] ، يقول :

نال المعالي حاكما مالكا فهو سليمان وداوود

ويبدو ان ابن القيسراني قد استوحى معنى هذه الصورة من قوله تعالى : **ففهّمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين** [4] **.**

واستحضر الشاعر النص القرآني في رسم صورة لأعداء ممدوحه الفرنج ، فإذا كان الممدوح مؤيدا ، يقاتل من اجل إعلاء الحق فإن أعداءه يمثلون الكفر والباطل ، ولهذا راح نختار الشاعر من القرآن ما يدل على بطلان عقيدتهم وطغيانهم ، وكل ذلك في معرض التنفير من

---

[1] سورة محمد : 7

[2] سورة آل عمران : 160

[3] تخاصم عند النبي داوودعليه السلام رجلان بسبب دخول غنم أحدهما على زرع الآخر ، مما أدى إلى إفساده ، ولم يبق منه شيئ ، فقضى بان يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على النبي سليمان ، وهو بالباب ، فأخبراه بما قضى به أبوه ، فدخل على أبيه وقال له : يا نبي الله لو قضيت بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع فيصلحه ويعيده كما كان ، فإذا عاد الزرع كما كان عادة الغنم إلى صاحبها ، فوافق النبي داوووقضى بينهما ذلك ، أنظر ، الصابوني ، محمد علي : صفوة التفسير ج 3 ص 270

[4] سورة الأنبياء : 79

هؤلاء الاعداء ، وحث الأمة على الاصطفاف إلى جانب ممدوحه الذي هذفه إنقاذ الأمة من هذا الكفر والضلال ، فإن ابن القيسران يستحضر قصة قوم عاد مع هود ليرسم صورة هزيمة الإفرنج ودمارهم ، وينوه بقصر سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، إذ قال :

وإنمـــا الإفـرنج مــن بغيهـا عاد وقد عـــاد لـــها هود

قد حصحص الحق فما جاحِد في قلبه بأسك مجحـــود

وفي موضع آخر يصور الشاعر الفرنج جنّا يحاولون استراق السمع ، ولكن جنود المسلمين الذين عبر عنهم بالنجوم ، رجموهم وأحرقوهم ، فيستحضر قول الله تعالى : **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير** [1] ، وفي الصورة دلالة على طبيعة الصراع آنذاك ، يقول :

أتبعت جنّ سراياهم مضمرة فيها نجوم إذا جد الوغى رجموا

ويعزي الشاعر نور الدين بوفاة أخيه ، مشيرا إلى أن الموت هو نهاية كل المخلوقات ، وأنه لا رادّ لحكم الله ، يقول :

ومدة الأجل المحتوم إن خفيت فإن أيامنا من دونها طـــــــرق

وإنما نحن في مضمار حلبتهـــا خيل إلى غاية الأعمار تستبق

فالشاعر يؤمن ان لكل مخلوق نهاية مهما طال به العمر ، ويؤكد هذه الخصيصة حين يصورأعمار الناس (محدودة الأجل) في سيرها نحو الموت ، باخيول المتسابقة ، التي تركض وتجهد نفسها مسرعة إلى نهاية المضمار ، وقد أخذ اشاعر فكرة هذه الصورة الفنية من قوله تعالى : **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** [2] .

ويتأثر ابن القيسران بمعاني القرآن الكريم ، وهو في مجلس شربه بصحبة الكأس والآنية ، فيستوحي صورة جهنم وهي تقذف بشررها ، ويسقطها على كأس شرابه حين يضاف إليه الماء فيتطاير حباب الخمر ، يقول :

ومدامة كالنار مطفئها غرض لها ترميه بالشرر

فاشاعر يصور الخمر حينما يضاف إليها الماء ، فتتطايرفقاقيعها وحبابها ، بالنار المستعرة التي تقذف شررها في كل اتجاه عند محاولة إطفائها ، ويظهر إبداع الشاعر في هذا التصوير عندما يجعل تطاير شرر النار حينما يضاف إليها الماء ، بالخمر القوية حين مزجها بالماء ، ليكسرمن حدتها وقوتها ، وقد استمد الشاعر فكرة هذه الصورة الفنية من قوله تعالى : **إنها ترمي بشرر كالقصر** [3] .

2- الحديث الشريف : -

---

[1] سورة الملك : 5
[2] سورة الأعراف : 34
[3] سورة المرسلات : 32

وظف ابن القيسراني الحديث الشريف في رسم صورة للممدوح ، حيث ضمّن أبياته الشعرية بعض الكلمات التي وردت في بعض الأحاديث النبوية ، فصور نور الدين في سرعة استجابته للأحداث ، بسرعة وصول دعوة المظلوم إلى الله ، يقول :

كلفت همّتك العلوّ فحلّقت فكأنما هي دعوة في ظالم

فالشاعر يشيد بقوة عزيمة ممدوحه وعلوّ همته التي جعلته يصل إلى غايته ، ويحقق انتصاراته على أعدائه بسرعة وفي وقت وجيز ، وقد استوحى ابن القيسراني هذا المعنى من قول الرسول (صلعم) : " اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " [1] ، ومن قوله : " اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين " [2] ، فقارب الشاعر في تكوين صورته بين الهمة والعزيمة في الخير والدفاع عن الإسلام والمسلمين ورفع الظلم عنهم من جهة ، والمظلوم من جهة ثانية ، الذي اضطرته حاجته للدعاء على من ظلمه والتشكي إلى الله لرفع الظلم عنه ، فالطريق أمامها مفتوح غير مسدود ، لا يصدها صادّ ، ولا يمنعها مانع ،

وقال مهنّئا نور الدين بالعافية من مرض أصابه :

وعكة أقلعت وأنت صحيح ويصح النسيم بالاعتلال

نعمة الله لا يخص بها الخا لق إلا من كان منه ببال

ولباس من المثوبة والغفر ان البست ضافي الأذيال

فالشاعر يهنئ ممدوحه بالشفاء من مرضه ، وعودة الصحة إليه أفضل مما كانت عليه ، ويهنئه برضا الله عليه ، جزاء صبره على ما أصابه ، مذكرا إياه بأن هذه النعمة بهذا الابتلاء لا تصيب إلا من كان الله راضيا عنه ، محبا إياه ، ليكفر عنه سيئاته جزاء على مرضه .

تعود هذه الصورة الفنية إلى روضة الحديث الشريف ، حيث يستمد الشاعر معنى هذه الأبيات من أقوال الرسول (صلعم) ، في ثواب من ابتلي وصبر ، ومنها قوله : " ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه " ، [3] وقوله أيضا : مامن مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها "[4]

وينوي ابن القيسراني لقاء أهله وأحبته ، ولكت ظروفه لم تساعده ، فيغتذر ، ويتعلل بحجة وجود النية ، وأن لكل عبد ما نوى ، يقول :

ولكم نويت لقاكم وتصدني أيدي النوى ، ولكل عبد ما نوى

---

[1] رواه بخاري
[2] رواه الترمذي
[3] رواه البخاري
[4] المصدر نفسه

فالشاعر قد استوحى هذه الصورة من قول الرسول (صلعم) : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرئ ما نوى " [1] .

3- الدين النصراني : -

لقد ظهر هذا النوع من الصور عند الشاعر عندما إلى أنطاكية لحاجة عرضت له ، فنظم قضائد يشيب فيها بإفرنجيات ، [2] حيث كان يتصيد جمال الإفربجيات في كل مكان ، ويتعمد زيارة الكنائس ودور العبادة التي تجتذب المتعبدات ، لاسيما الجميلات منهن ، مع افتتانه بكنائس الإفرنج وطقوسهم الدينية ، حيث ضمن صوره الفنية كثيرا من التعابير والألقاب التي تدل على معرفة الشاعر الدقيقة بالكنيسة المسيحية وأصناف العاملين فيها ، وما يدور فيهامن صنوف العبادة ، مما يدل على ألفة ببعض جوانب الحياة عند الصليبيين .

ويبدوا ان هذه التجربة فن هذا النوع من الشعر لدى ابن القيسراني ، قد وجهته وجهة التبعية لأبي نواس ، فنهج نهجه ، وسار على خطاه ، لأن الصورة الفنية في هذا الشعر يتناسب مع الصور الفنية عند أبي نواس في الخمر والغزل ، وقد أشاد الشاعر في قصائده الغزلية بالنساء الصليبيات ، وتعلقه بهن ، حتى نمنى أن يكون عندهن صليبا ليتقربن منه ويعظمنه ، يقول :

أمعظمة الصليب وددت اني ودين الله عندكم صليب

وينبهر الشاعر بهذا الجمال ولحسن المكشوف ، الذي يبهج العين ، ويحرك المشاعر ، لدرجة ان التماثيل الجامدة تكاد تنطق من فتنة المنظر ، مما دفعه في آخر هذه الثغرية أن يتمنى لو أنه دمية أو صورة للقديس مر جرجس ، ليحظى بلمسات تلك الجميلات الناعمة ، فجاءت صورته الفنية في وصف هذا الجمال تعبيرا صادقا عن أحاسيسه وعواطفه ، يقول :

ترى كل فاتنة ، وجهها معرذى بشمس الضحى مكتسى

تكاد التماثيل من حسنـه تفور بناطقة الانفـــــــــس

فياليتني عندها دمـــــية تراني ولا ريب في ملـــمسي

فأقسم لو أنني أستطـيع تحول صورة مرجرجـــــس

ويصف ابن القيسراني الجمال الإفرنجي في أنطاقية ، مستخدما بعض الألفاظ التي تدل على معرفته بمصطلحات الدين النصراني عندهم ، فيصف خروج تلك الجميلات في الصباح الباكر وقد تمنطقن بالزنابير حول خصورهن ، ويصور جمال إفريجية تقف بجانب المذبح المقدس (قبلة النصابى في الصلاة) ، فبدى المدبح وكأنه مكان لقتل النفوس ، وإثارة الغرائز والشهوات ، بدل كونه مكان عبادة وصلاة ، يقول :

حبذا يوم باكرتنا الزنـــــــانيـ رترينا القضبان في الـكثبان

[1] الأربعون النووية : لإمام النووي

[2] الأصبهاني :عماد الدين محمد بن محمد : خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام .

وعلى موقف الأساقف ظـــــبي يفرس الاسد بين الفــرسان

ألذبح النفوس سموه بامـــــــــذ بح أم للصلاة والقـــــربان

أخرته القسوس عن رتبة الصد روحطته في صدور الأماني

ويشير ابن القيسراني في صورة فنية أخرى ، إلى معرفته بعادة من عادات النصارى ، وتتمثل بتصليب اليد على الوجه عند الخوف والفزع ، يقول :

فيا حسن ذاك الوجه إذ ريع روعة فعوذه منها بتصليبة اليد

وفي صورة فنية أخرى يشير ابن القيسراني إلى كيفية تجمّع حسناوات الإفرنج للصلاة في الكنائس ، وذلك بدق الناقوس ، بديل الأذان عند المسلمين ، يقول :

تحوي إذا أذن الناقوس معركة لعسكر الحسن فيها أي معترك

الملاحظ أن ابن القيسراني يكرر الوصف نفسه ويعيد الصورة ذاتها ، ولكن في الفاظ جديدة استوحاها من المجتمع الإفرنجي المغاير في بيئته للبيئة العربية الإسلامية ، وهي تدل على مجتمع له طقوسه وحياته الخاصة به ، فيذكر الثالوث ، والقديس ، والهيكل ، والناقوس ، وكأنه ماخوذ مسحور منفعل بما يراه من ألوان الجمال البشري ، باكثر مما يعجبه روعة المناظر العامة كالمباني وشؤون الحضارة وغيرها .

الفصل الرابع

مساهمته الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية

تقسيم شعره من حيث الموضوع : -

ينحصرشعرابن القيسراني من حيث الموضوع - إلا قليلا- في اتجاهين : -

1 . اتجاه فردي : يصور تذوقه للجمال وأنواع الحنين الذاتي وبعض الوصف والحكمة .

2 . اتجاه عام : يمثل وقفته في المعارك الحربية والدعوة إلى الجهاد وما يلحق بهذا من مدائح.

الأول : الاتجاه الفردي :

يشمل هذا الجانب مقطعات قالها في الحنين حين ذهب إلى العراق وأقام هناك بعض الوقت ، وقد تمت هذه الرحلة عام 527 هـ ، فهذه مقطعات من أوائل شعره ، وتبلغ عشرا في العدد وتتضمن 48 بيتا اي أنها في مجموعها لا تزيد عن قصيدة واحدة طويلة ، ولكن قيمتها الفنية أكثرمن ذلك بكثير ، إذ أنها تجردت عن طلب المال ولم يثرها الأمل في كرم الممدوح فهي في دوافعها مستوحاة من المعاني الإغتراب والشوق ، ولكن الالحاح على وضعها - هكذا - في شكل مقطعات مما يستوقف النظر ، ويخيل إلى أن الشاعر كان يحاول كلما ابتعد عن مواطن ممدوحيه وخلا إلى نفسه أن " يؤلف " في موضع شيئا يشبه تصويره للرحلة ، فبدلا من ان يكتب وصفا نثريا لرحلته ، جعل يسجل خاطرة عن خواطر الشوق كلما انتقل من مكان إلى آخر .

يصف ابن القيسراني رحلته حين أتيح له السفرإلى أنطاكية ، فقد نجا مرة أخرى من أسر المناسبات التي كان يرتبط بها ، وأخذ يصف المواضع التي استحسنها في مقطعات أخرى سميت " الثغريات " وهي وصف رحلة ألح فيها على تسجيل تجاربه وخواطره الجديدة ، وبين الرحلتين مالا يقل عن ثلاثة عشرعاما ، إلا أن الثانية تمتاز عن الأولى بحدة التجربة وطرافتها ، ففيها وقع ابن القيسراني في بيئة مسيحية بعضها محلي وبعضها صليبي .

ومن الانقياد إلى طبيعة العصر نجد ابن القيسراني في هذا اللون الفردي من الشعر قد صنع أشعارا في وصف العذاروالتغزل بالغلمان ووصف الخمرومجلس الشرب والطبيعة ، وله مقطعات حكمية عملية ساذجة تسجل خواطر الشاعر وآراءه في الحياة والناس .

الثاني : الاتجاه العام :

في الاتجاه العام ستا وأربعين قصيدة في المدح وذكر الحروب والجهاد ، وبعضها وصلنا كاملا وبعضها لم يصل منه إلا مقدمته الغزلية أو قطعة من المدح ، وبعضها يزيد على خمسين بيتا ، وقد جاءت قصائده هذه في مرحلتين أو قل أنها انقسمت في نوعين ، قصيدة المدح في زمن السلم وقصيدة المدح قي حال الحرب ووصف الجهاد ، وبين النوعين فروق هامة في الشكل مثلما أن الموضوع نفسه يقيم بينهما فرقا واضحا .

فقصيدة المدح العادية ظلت تحتفظ بالمقدمة الغزلية الطويلة ، أما قصائده التي قيلت في إثر المعارك فإنها تخلصت من المقدمة .

وليس في قصائد المدح عند ابن القيسراني وصف لرحلته إلى الممدوح أو لمصائب السفر ، لأنه يقيم مع أكثر من مدحهم في بلد واحد أو قريبا منهم ، إلا في قصيدة واحدة ، ولذلك هو لا يجيد هذا النوع التقليدي التي جرت عليه القصائد في العصور السابقة .

أما جهاديات ابن القيسراني فقد اتخذت لها وجهة أخرى ضاع منها الشكل التقليدي السابق ، فاختفت المقدمة الغزلية أو تضائل شأنها كثيرا ولم يعد من ثمت حاجة إلى تجويد التخلص ، واصبح الشاعر يهجم على موضوعه دون احتفال وتحفز ، كانت المقدمة الغزلية ترددا أو تهيئا في الدخول إلى الموضوع المباشر ، فأصبح هذا التردد في شعاب الجناس أمرا غير ضروري لأن المقام أضيق من أن يتسع لهذا التفنن اللفظي في شكوى مفتعلة ،

ولا ريب في أن ابن القيسراني وأصحابه في حروب الصليلية كانو في وصف المعارك يستندون إلى رصيد ضخم يمثله المتنبي وأبو تمام ، غير أن الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين وابنه نور الدين كانت تجعل مجال القول ذا سعة ، وأصبح الشاعر يجد المادة الصادقة بعد أن كان يتكىء على مهارته اللفظية في اختلاف صفات للممدوح ، وتمثل قصائد للقيسراني سجلا للأعمال البطولة كما أنها تمثل كيف خرج الشاعر من الدائرة الضيقة إلى الدائرة الواسعة ، وأصبح الشاعر أمة بعد أن كان شاعرا فرديا مستجديا .

ومن أجزل قصائد ابن القيسراني " الجهاديات " وأكثرها قوة وأطولها أيضا ، قصيدته التي قالها بعد فتح انّب وقتل البرنس مقدم الفرنج وأسر البرنس صاحب أنطاكية هو في أعظم فتوح نور الدين ،

تدخلات ابن القيسراني الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية : -

1 . مع تاج الملوك بوري بن طغتكين :

لما انتهى إلى الفرنج خبر الكائنة في الباطنية وانتقال بانياس عنهم إليهم أحدث ذلك لهم طمعا في دمشق وأعمالها وأكثروا الحديث في قصدها وبثوا رسلهم إلى الأعمال في جمع الرجال والاحتشاد فاجتمع إليهم سائرمن حَوتَه بلادهم من الرُّها وأنطاكية وطرابلس والساحل ووصلهم في البحر ملك كُند هوالذي قام مقام بغدوين الهالك في الفرنج ومعه خلق كثير فاجتمعوا ونزلوا على بانياس وخيموا عليها وشرعوا في تحصيل المِيَروالأزواد للإقامة وتواترت الحكايات عنهم ممن شاهدهم واحصى عددهم إنهم يزيدون ستين ألفا فارسا وراجلا وأكثرهم الرجالة .

فلما عرف تاج الملوك بوري بن طغتكين ذلك من عزمهم تأهب لهذا الأمروصرف همته إلى الاستكثار من العدد والسلاح وآلة الحرب وما يحتاج إليه من الآلات التي يحتاج إليها لتذليل كل صعب وكاتب أمراء التركمان على أيدي رسله المندوبين إليهم بالاستنجاد والاستغاثة بهم وبذل من المال والغلال ما بعثهم على المبادرة إلى إجابة ندائه والسرعة إلى دعائه ووصل إليه من طوائفهم المختلفة الأجناس كل ذي بسالة وشدة مولس راغبين في أداء فريضة الجهاد ومسارعين إلى غزو الكفرة الأضداد واطلق ما يحتاجون إليه لقوتهم وقضيم خيولهم . [1]

[1] ذيل تاريخ دمشق : ص 225 .

ورحل الملاعين عن بانياس طالبين دمشق على اناة وترتيب ونزلوا على جسر الخشب والميدان المعروف المجاورله من ذي العقدة 523 هـ ، وخيموا هناك وأصبح العسكرخرج من دمشق وانضم إليه التركمان من منازلهم حول البلد والأمير مرة بن ربيعة في العرب الواصلين معه وتفرقوا كراديس في عدة جهات ووقفوا بإزائهم لتخرج منهم فرقة فيسارعوا إليها ويزحفوا فيبادروا إلى لقائهم فلم يخرج منهم فارس ولاظهرراجل بل ضموا اطرافهم ولزموا مخيمهم وأقام الناس على هذه الصورة أياما ، يتوقعون زحفهم إلى البلد فلا يشاهد منهم إلا تجمعهم وإطافتهم حول مخيمهم وبريق بيضهم وسلاحهم وكشق خبرهم وما الذي أوجب تأخرهم عن الزحف وتلوّمهم فقيل أنهم قد جردوا أبطال خيلهم وشجعان رجالهم للمصيرمع البغال إلى حوران لجمع المِيَر والغلال التي يستعان بمثلها على الإقامة النزال وأنهم لا حرقة لهم ولا قوة بهم إلى عود المذكورين .

فلما عرف تاج الملوك هذه الحال بادر بتجويد الأبطال من الأتراك الدمشقيين والتركمان الواصلين والعرب القادمين مع الأمير مُرة ، وأضاف إليهم الأمير سيف الدولة سوار في عسكر حماة وقرّر معهم نهوضهم آخر يومهم الجد في السير عامة اليل ووصولهم عند الصباح إلى ناحيته بُراق ، لأن تقدير وصول الملاعين عند عودهم من حوران إلى ذلك المكان . فسارعوا إلى العمل بما مثل لهم وأصبحوا في ذلك المكان وهم على غاية من الكثرة والمنعة ومعهم سواد عسكرهم باسره في عدد لا يحصى كثرة فهجموا عليهم فلم يتكامل ركوبهم إلا قد قتل منهم جماعة بالنشّاب وضربوا مصاقّا ووقفوا قطعة واحدة وحمل عليهم المسلمون فثبتوا ولم يزل عسكر المسلمين يكر عليهم ويفتك بهم إلى أن فشلوا وتخذلوا وايقنوا بالبوار وحلول الدمار ، وولى كليام دبور مقدمهم وشجاعهم في فريق من الخيالة منهزمين وحمل الاتراك والعرب حملة هائلة واحدقوا بهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح ورشقا بالسهام فما كان إلا بعض النهار حتى صاروا على وجه الأرض مصرعين وبين أرجل الخيل مغفّرين وغنموا منهم الغنيمة التي امتلأت أيديهم بها من الكراع والسلاح والأسرى والغلمان وأنواع البغال وهو شيءلا يُحصر فيذكر ولا يحد فيعد ولم يسلم منهم إلا معسكرهم إلا القليل من الخيالة الذين نجت بهم سوابقهم المضمرة وعاد الاتراك والعرب إلى دمشق ظافرين غانمين منصورين مسرورين آخر نهار ذلك اليوم المذكور ، فابتهج الناس بهذا اليوم السعيد والنصر الحميد وقويت به النفوس وانشرحت به الصدور وعزم العسكر على مباكرتهم بالزحف إلى مخيمهم عند تكامل وصوله ، وتسرع إليه جماعة من الخيل وافرة وهم ينظرون إلى كثرة النار وارتفاع الدخان وهم يظنون أنهم مقيمون فلما دنوا من المنزل صادفواهم وقد رحلوا آخر تلك الليلة عندما جاءهم الخبر وقد أحرقوا أثقالهم وآلآتهم وعُددهم وسلاحهم إذ لم يبق لهم ظهر يحملون عليه عند ما عرفوه من حقيقة الأمر الذي لا يمكن معه المقام مع معرفتهم بكثرة عسكر الأتراك ولا طاقة لهم به ولم يتمالكوا أن رحلوا لا يلوون على منقطع ولا يقفون على مقصِّر وخرج إلى منزلهم فغنموا منه الشيء الكثير من أثاثهم وزادهم وصادفوا جماعة من الجرحى في الوقعة قد هلكوا مع وصولهم ودفنوا في أماكنهم وخيولهم مُصرّعة من الجراح الكثيرة ، ولحق أواخرهم العسكر فقتلوا جماعة من المنقطعين واغدّوا سيرهم في هزيمتهم خوفا من لحاق المسلين لهم ، وأمن الناس وخرجوا إلى ضياعهم وانتشروا في أماكنهم ومعائشهم وانفرجت عنهم الكربة وانكشفت الغمّة وجاءهم من لطف الله تعالى وجميل صنعه ما لم يكن في حساب ولا خطر في بال .

وعاد التركمان إلى أماكنهم بالغنائم الوافرة والخلع الفاخرة وتفرق جمع الكفرة إلى معاقلهم على أقبح صفة من المذلّة وعدم الكراع وذهاب الأثقال وفقد ابطال الرجال ، وسكنت القلوب بعد الوجل وأمنت بعد الخوف والوهل وايقنت النفوس بان الكفرة لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل بعد فناء أبطالهم واجتياح رجالهم وذهاب أثقالهم . [1]

مدح ابن القيسراني تاج الملوك بوري بن طغتكين بعد هذه الانتصارت على الفرنج ، لا نستطيع ان نعد هذه القصيدة من اوائل شعر ابن القيسراني ، فقد كان الشاعر يومئذ يناهز الخامسة والأربعين ، ومن المرجح انه مارس نظم الشعر قبل ذلك بسنوات غير قليلة ، إلا أننا لا نستطيع أن نصل بين ما قاله من قبلها وبين احداث تاريخية هامة ، غير أن هذه القصيدة ربما كانت أول التفاتة يلتفتها ابن القيسراني إلى الواقع الذي كانت تعيشه بلاد الشام ، وهو الواقع الذي ربط به حياته من بعد، وفي نطاقه تفتحت شاعريته واثمرت .

قد سجل ابن القيسراني هذا النصر في قصيدة له ، هذه هي القصيدة :

الحق مبتهج ، والسيف مبتســـــم ومال اعدا مجير الدين[2] مقتسـم

قُدتَ الجياد ، وحصنتَ البلاد ، وأمـ نتَ العباد ، فأنت الحل والحـرم

وجئت بالخيل من أقصى مرابطها [3] معاقد الحزم في أوساطها الحُزم [4]

يصف جموع الفرنج :

حتى إذا ما أحاط المشركون بـــنا كالليل ، يلتهم الدنيا له الظلـــــم

وأقبلوا ، لا من الإقبال ، في عــدد يؤود[5] حاسبه الإعياء والســـــأم

أجريت بحرا من الماذي[6] معتكــرا[7] أمواجه بأواسي[8] اليأس تلتطـــم

وسُست جندك والرحمن بكلـــــؤه سياسة ما يعفى إثرها نـــــــدم

وقفت في الجيش ، والأعلام خافقة بالنصر ، كل قناة فوقها علـــــم

يحوطك الله صونا عن عيونهـــــم والله يعصم من بالله يعتصـــــم

حتى إذا بد الأراء ضاحكـــــــة واقبلت أوجه الإقبال تبتســـــــم

---

[1] ذيل تاريخ دمشق : ص 227 .

[2] مجير الدين آبق : هو حفيد تاج الملوك بوري بن طغتكين ، وهم من الأتراك ، حكم دمشق بين 1140 – 1154 . كان معين الدين آنر وصيا على العرش والحاكم الفعلى لدمشق ، واستطاع السيطرة على السلطة بشكل كامل بعد موت معين الدين آنر سنة 1149 ، نجح نور الدين زنكي في سيطرة على دمشق سنة 1154 ليعوض في إقطاع بحمص ثم استبدل إقطاعه في الجزيرة السورية فلم يرضى مجير الدين وارتحل إلى بغداد ليمضي بقية حياته هناك ، توفي سنة 1169 م .

[3] المربط ج مرابط : موضع ربط الدوابّ

[4] الحزيم ج حُزم : مكان شد الحزام ، هو ما يشد به وسط الدابة .

[5] اضنكه وثقل عليه .

[6] الماذي : العسل

[7] اعتكر الليل : اشتد سواده ، اعتكر القوم في الحرب : اختلطوا . معتكرا أمواجه : مختلطا أمواجه .

[8] الاسية ج عواس هي العمود

أتبعت جن سراياهم مضمـــــرة [1] فيها نجوم إذا جد الوغى رجمـوا

والنصر دان ، وخيل الله مقبلــة ترجواالشهادة في الهيجا ، وتغتنم

يصف حالة الفرنج عند الانهزام :

صاب الغمام عليهم والسهام معـا فما دروا أيما الهطالة الدّيـــــم [2]

سروا لينهبوا الأعمار ، فانتهبــوا قتلا ، ويغتنموا الأقوال فاغتُنموا

وأقبلت خيلنا تردى بخيلهـــــم مجنوبة [3]، وعلى ارماحنا القمــم [4]

وادبر الملك الطاغي ، يزعزعه حر الأسنة ، وهو البارد الشبـــم [5]

وا فوا دمشق فظنوا أنها جـــدة ففارقوها وفي ايديهم العـــــــدم

وايقنوا مع ضياء الصبح أنهـــم إن لم يزولوا سراعا زالت الخيــم

ثم يصور كيف ارتحل الفرنج مخلفين وراءهم أثقالهم :

فغادروا أكثر القربان وانجفلــوا [6] وخلفوا أكبر الصلبان وانهزمـــوا

فغادروا المسجد الأدنى فماعـبرت عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم

مستسلمين لأيدي المسلمين ، وقد أعزى القنا بتمادي[7]خطفهم نهـــم [8]

لايملك الجسم دفعا عن مقاتلـــــه كأنه حين يغشاه الردى صنـــــم

يصف الشاعر هذه الواقعة من موهبته الشعرية ، في بداية هذه القصيدة استعمل الشاعر الاستعارة أن جعلت الحق يبتهج ويفرح ، وجعلت السيف يبتسم في هذه الانتصارت على الكفار ، أما الإستعارة الثانية ، فقد بثت الحياة في الجماد ، فاستحالت بسحر الإستعارة إلى إنسان يتأثر بما حوله فيتفاعل معه بقلبه وعاطفه فيبتسم . وكان تاج الملوك قائدا للجيش ، حريصا على أمن البلاد والعباد ، وجاء من المكان البعيد على خيله ليغزو الفرنج .

يصور الشاعر جيش الفرنج بكثرة عدده ، وسرعة تحركه في ميدان المعركة وقد أثار الغبار فغطى ساحة المعركة ، بالليل الذي يحتوي كل شيىء داخله ، وكأنه يلتهمه التهاما ، ويصوره وقد أحاط بالمسلمين من الجهات جميعها ، موحيا لمن يراه بـأنه قادر على تدمير جيش المسلمين ، وهذا التصوير من الشاعر وما صاحبه من تهويل جيش المشركين ، وإظهار قوته وكثرته ،

---

[1] مضمرة : مخفية

[2] الديمة ج ديم وديوم : مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق .

[3] مجنوبة : مبعودة

[4] القمم : طويل القامة .

[5] شبم الماء : برده

[6] انجفل القوم : هربوا مسرعين .

[7] تمادى : بلغ فيه المَدى .

[8] نهم الإبل : زجرها وصاح بها لتجدّ في سيرها .

إنما يدل على شجاعة المسلمين وشدة بأسهم ، وإنهم قادرون على هزيمة أعدائهم مهما كان عددهم كبيرا ، إذا لا فخر بهزيمة جيش صغير وضعيف ، والتغلب عليه ، فعمد الشاعر إلى تهويل جيش الأعداء ليعبر من خلاله قوة ممدوحه وصلابة عزيمته .

بعد ذلك يصورالشاعرالممدوح مثل قوله : وقفت في الجيش ....إلخ . ويقول : علم النصر خافقة فوق راسه ، وفوق كل قناة المسلمين علم ، وصان الله الممدوح من عيون الكفار ، لأنه يعتصم بحبل الله ، ومن يعتصم بحبل الله فهو حسبه .

ثم يصور الفرنج جنا يحاولون استراق السمع ، ولكن جنود المسلمين الذين عبرعنهم بالنجوم ، رجموهم وأحرقوهم .

يصور الشاعر حالة الفرنج عند انهزامهم ، يقول : أمطرت السماء بالماء وأمطرت قوس المسلمين بالسهام معا ، فما علموا أيهما المطران عزيرا ، يشبه سهام المسلمين للمطر الهاطل ، وأسروا قولهم عن نهب المسلمون الأعمار ونهبوا مقتولين ، وهو يقول بمعنى مجازى ، وأقبل خيل المسلمين على خيولهم حتى كانت بعيدة جدا ، وفي أيدهم رماح طويل ، وأدبر الملك الطاغي ، ادبره حر الأسنة والملك الطاغى البارد الشبم ، وأرادوا ان يسيطر على دمشق بسرعة ولكنهم فارقوها أخيرا وليس في أيديهم شيئ ، وفهموا عند الصبح إذا لم يسافروا من دمشق سراعا سيكون خيمهم مهلوك .

فهذه الأبيات تصورالأعداء منهزمين لا يلتفتون وراءهم ، تاركين أموالهم وأمتعتهم واثقالهم وأسلحتهم وصلبانهم رمز دينهم وحربهم ، من شدة خوفهم يتخيلون أن كل مخلوق على الأرض رجل يريد قتلهم ، لأن عاقبة الحرب كانت هائلة ، لم يحتبسواها ، فغادروا المسجد الأدنى فإذا كيف يفكرعن المسجد الأقصى الذي ارادواحتلاله ، ادبروا منهزمين مخذولين بأيدي المسلمين ، لم يملكو إلا الخسارة والذلة ، كانوا حين يغشاهم الذلة مثل صنم يعني لا يستطيع الحركة ولا الفرار .

2 . مع عماد الدين زنكي :-

- **فتح حصن بارين ، سنة 534 هـ :**

وفي سنة 534 توجه عماد الدين زنكي إلى بلاد الفرنج مغيرا عليها فاجتمع لمقاومته ملوك الفرنج وفرسانهم ورجالهم ، فلقيهم بالقرب من حصن بارين ، وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله إلا ما يكى عن ليلة الهرير ، ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس ، لانه كان أقرب حصونهم ، وأسلموا عدتهم وعنادهم ، وكثر فيهم الجراح ، ثم سار عماد الدين زنكي إلى حصن بارين ، أمنع حصونهم الذي كانوا يحتلونه ، لانه واقع في داخل البلاد قرب حماة ، وكان مصدر خطر يتهدد سكانه ، فحصره حصرا شديدا ، فراسلوه في طلب للأمان ليسلموا ويسلموا الحصن ، فأبى إلا أخذهم قهرا ، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم ، وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم ، فجمعوا وحشدوا واقبلوا إلى الساحل ، ومن بالحصن لا يعلمون بشيئ من ذلك لقوة الحصر عليهم ، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان ،

فأجابهم وتسلم الحصن وساروا ، فلقيهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ،

قال ابن الأثير : وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبواها ، وتقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بعماد الدين زنكي هذا الضرر العظيم ، وفي مدة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها ، فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كبيرة وقرايا عظيمة .

خلّد ابن القيسراني هذه المعركة في رائية مشهورة : -

قوله :

حذار[1]منّا ، وأنّى ينفع الحـــــــذر وهي الصوارم [2] لا تبقي ولا تــذر

واين ينجو ملوك الشِرك من ملـك من خيله النصر لا بل جنده القــدر

سلوا سيوفا كأغماد[3] السيوف بهــا صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهـــم في مأزق من سناه يبرق البصــر

ولوا تضيق بهم ذرعا مسالكهـــم والموت لا ملجأ منـــــه ولا وزر

ثم يقول :

وفي المسافة من دون النجاة لهـم طول وإن كان في أقطارها قصـر

وأصبح الدين لا عينا ولا أثـــــر يخاف والكفر لا عين ولا أثـــــر

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبـــة فالقوم إن نفروا الوى بهم نفـــــر

وأيضا يقول :

إن قَاتلوا قُتِلوا أو حَاربوا حُربـــوا أوطاردوا طُردوا أو حَاصروا حُصـروا

وطالما استفحل الخطب[4] البهيم بهم حتى أتى ملك آراؤه غـــــــرر

والسيف مفترع أبكار[5] أنفسهـــم ومن هنالك قيل الصارم الذكـــر

أخيرا :

لا فَارقَتْ ظِلَّ محيى العدل لامعــة كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا

---

[1] حذار : اسم فعل أمر بمعنى احذر

[2] الصارم ج صوارم : الشجاع ، الأسد ، رجل صارم : ماض في كل أمر

[3] الغِمد ج غمود وأغماد : جفن السيف

[4] استفحل الأمر : عظم ولم يجر على استواء

[5] افترع البكر : ازال بكارتها .

ولا اثْنَنى النصرُ عن أنصاردولتـــه بحيث كان وإن كانوا به نُصـروا

حتى تعودَ ثغورُ الشام ضاحكـــــةَ كأنما حل في أكنافها عُمـــــرُ

يقول الشاعر ابن القيسراني : احذر منا ، فإننا شجعان ، لا يستطيع لأحد أن يسابقنا ، بل ما فائدة الحذر ؟ لأن الواقعة التي جرت بين المسلمين والفرنج في فتح حصن بارين واقعة كبيرة منقطع المثل ، ما بقي شيئا من عُدة الكفار ولا أمتعتهم ولا أسلحتهم ولا أي شيئ آخر، وكان في الصف الأول عماد الدين زنكي ، وكيف يقدرملوك الشرك النجاح عليه ؟ لأن النصر من خيله الجياد ، والقدر جنده العظيم ، سلوا سيوفهم من الجفن وهي مثل الأغماد ، يعني سيوفهم ليست جيدة ، وليس لهم نصلا جيدا كذلك ، ولما جاء عماد الدين زنكي إليهم يلمع سناه مثل البرق ، ولما اشتد الهجوم على الفُرنج ولوا مدبرين ، وأصاب كلا منهم الموت ، فإذا ليس لهم ملجأ ولا وزر .

هذه هي تصوير الانفعالات المشتّتة والمضطربة في نفوس المنهزمين من الأعداء الذين يظنون أن المسافة التي تفصلهم عن الخطر بعيدة ، وإن كانت في واقع الحال قصيرة ، في هذه الحالة ليس لدينهم عين ولا أثر في قلوبهم لإتيان راحة النفس والأمن ، لأن عقيدتهم كفر ، طبيعي أن ليس للكفر عين ولا أثر ، وليس للفرنج بعد هذه الأيام خوفا كبيرا مثلها ، لأن هذه الأيام هي التي من أخوف أيامهم .

ووظف ابن القيسراني " التقسيم " لتلخيص مجريات الحرب بين عماد الدين زنكي وأعدائه ، التقسيم "هو ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين " [1]، فجيش عماد الدين زنكي مسيطر على أحداث المعركة ، قادر على قلب هجوم الأعداء وتحويله لصالحه ، التقسيم في منح النص إيقاعا موسيقيا ملائما للموضوع الذي يتناوله . كلما عظم شأنهم وخطر بالهم أتوا على ملكهم الفرنج آراؤه غرر يعني الخيانة ، أجسام الكفار لم تُستعملوا في الحروب بالضرب والطعن من قبل ، هذه هي بكارة مجازية ، ولكن سيوف المسلمين أزال هذه البكارة بسيوفهم ، وأصبحوا مقتولين وجرحى أعضاءهم ، من حيث كان لهم يعني للفرنج قصة الصارم والشجاعة .

ويستخدم الشاعر هنا ثغور الشام ويوظفها في صوره الفنية ، فيكشف عن سرورها برجوعها إلى المسلمين بعد عناء طويل في ظل الاحتلال الفرنجي لها مرة أخرى ، ويقارب بين فرحتها وفرحة القدس يوم دخلها عمر بن خطاب رضي الله عنه فاتحا ،

فهو يقرن شخصية ممدوحه عماد الدين بشخصية عمر بن خطاب رضي الله عنه ، ويشيرإلى طبيعة الصراع بين المسلمين والصليبيين ، إلى أن انتصارات الممدوح هي امتداد لمعارك الإسلام وملاحمه الكبرى السابقة ،

وقد جاءت هذه الصورة الفنية إيجابية بعيدة عن التكلف والتصنع ، لتربط بين الماضي والحاضر ، ماضى العدل الذي حققه الخليفة عمر رضي الله عنه في ذلك الوقت ، بحاضرعماد الدين زنكي الذي سوف ينشر العدل كما نشره أسلافه .

[1] الإيضاح في علوم البلاغة : لأبي عبد الله زكريا القزويني ، ص 369

- **فتح الرُها ، سنة 539 هـ :**

ولم يكن انتصار عماد الدين زنكي في بارين إلا نصرا جزئيا إذا نحن قسناه بما حققه بعد بضع سنوات في الرها ، إذ كانت هذه المدينة مفتاحا لكل ما حولها من مناطق ، وكان المستولى عليها يستطيع أن يغل يد الدولة الأتابكة ويحرمها من التصرف الحرحتى فيما تحكمه من مدن ، وهي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهي أحد الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ، ثم قسطنطينية والرها ، وكانت لجوسلين ، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم ، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرعظيم ، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق سنجار عدة حصون كسروج ، والبيرة ، وجملين ، والموزر ، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس عين ، والرقة ، وأما حران فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة ، فلما رأى عماد الدينن زنكي الحال هكذا أنف منهم ، وعلم أنه لا ينال منها غرضا مادام جوسلين بها ، ولذلك انتهزعماد الدين زنكي الفرصة السانحة لفتحها ، وسار إليها بجيشه وحاصرها ثمانية وعشرين يوما ، فملكها عنوة ، فاستباحها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، وانهزم الفرنج ، وولوا مدبرين ، ثم رتب عماد الدين زنكي البلد وأصلح من شأنه ، وسارعنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرى ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وكان فتحا عظيما طار في الآفاق ذكره ، وطلب بها نشره ، وشهده خلق كثير من الصالحين .

ولاغرابة - وتلك هي قيمة فتح الرها - أن يكون الشاعر في طليعة المهنئين بها ، ولا غرابة أيضا إذا اندفع يمجد القوة ، ويرى أن السيف هو الحكم الوحيد في العزة والغلبة ، بعد أن رآى هذا السيف بين أمراء الأقاليم وسيلة الفرقة والتطاحن ، لقد وجد في عماد الدين الرجل الذي وجه السيف وجهته الصحيحة فوقف ينشده على إثر ذلك الانتصار ، فيقول :

هو السيف لا يغنيك إلا جِـــلاده ... وهل طوّق الأملاك إلا نِجاده

وعن ثغرهذا النصرفلتأخذ الظُّبى ... سناها وإن فات العيون اتقادُه

سَمتْ قبة الإسلام فخرا بطَــولِة ... ولم يك يسمُو الدين لولا ِماده

وذاد قسيم الدولة ابن قسيمـــــها ... عن الله ما لا يستطاع ذيـــاده

لِيَهن بني الإيمان أمّن ترفعـــتْ ... رَواسِيه عزّا واطمأن مِهــادُه

يعظم الشاعرمن شأن فتح مدينة الرها ويبين أهمية القوة في هذا الفتح العظيم ، ويخاطب عماد الدين زنكي قائلابأن السيوف تغنيك عما سواها ، فأنت من الملوك القلائل الذين حملوا السيوف وانتصروا على الأعداء بالقوة ، من كثرة السيوف اللامعة التي اشتركت في المعركة وحققت النصر ، لم تستطيع العيون النظر إلى لمعانها لشدة حدتها ولأنها لم تر معركة قوية مثلها دلالة على عظمة هذا الفتح ، ارتفع شأن الإسلام بهذا النصر المؤزر ، وهذا النصر لم يك يتحقق لولا شجاعة وقوة عماد الدين زنكي ، يهنئ الشاعر المسلمين بهذا النصر الثابت كالجبال الذي حقق لهم الأمان والأمن في الجبال والسهول .

وفتحُ حديثُ في السماع حديثــُه ... شهيٌّ إلى يوم المعاد معَـاده

أراح قلوبا طرن من وُكناتـــها عليها فوافي كل صدر فـــؤاده

لقد كان في فتح الرهاء دلالـــةٌ على غيرماعند العُلوج اعتقـادُه

يرجون ميلاد ابن مريم نصـرة ولم يغن عند القوم عنــه ولاده

مدينة إفك منذ خمسين حِجـــةٌ يَفُلَّ حديدَ الهندِ عنها حِـــــدادُه

يصف الشاعر فتح الرها بأنه فتح حديث على الاسماع ، لكنه الكلام به محبب سيبقى على السنة الناس يتردد يوما بعد يوم إلى يوم القيمة ، وأراح قلوب الناس بهذا الفتح العظيم ، وطار قلوبهم من الوكنات يعني العُشّ إلى عالم الفسيح ، كان لفتح الرها صدى ودلالة عظيمة ورنة فرح ، فكان على غيرما توقع العُلوج الصليبيين بأنهم لن يهزموا أبدا ، وأن المسلمين لن يحققوا النصرعليهم ،والعُلوج هم الصليبيون الغزاة الذين يتصفون بالقسوة وغلاظة الطبع ، المسيحيون يرجون أن ميلاد ابن مريم في هذه السنة يكون لهم نصرة كبيرة ، ولكن خاب هذا الرجاء بالفتح ، كانت مدينة الرها تابعة لدولة الكفر والإثم منذ خمسين سنة ، وكانت مدينة منيعة قوية تثلم سيوفها القوية السيوف المهاجمة .

تفوت مدى الأبصارحتى لوأنها ترقت إليه خان طرفا ســواده

وجامحةٌ عزّ الملوكَ قيادُهـــــا إلى أن ثناها من يعزّ قيـــــاده

فأوسعها حر القراع مـــــــؤيد بصير بتمرين الألد لـــــــداده

كأن سَنا لمع الأسِنة حولـَــــه شَرار ولكن في يديـــــه زِنادُه

فأضرمها نارين حربا وخُدعـة فما راعَ إلا سورُها وانهــدادُه

كانت مدينة قوية عصية كالفرس الجامحة لا يستطيع أحد من الملوك فتحها والسيطرة عليها ، إلا أن جاء الملك عماد الدين زنكي فاستطاع اخضاعها والسيطرة عليها ، لمعان السيوف حول الملك عماد الدين زنكي كانت تتطاير كالشرار المنتشر في الهواء دلالة على شدة المعركة وقوتها ، وكان هو الذي يقدح شرارة هذه السيوف بيديه ، استخدم عماد الدين زنكي طريقين لفتح الرها ، الحرب الضروس والخدعة عندما أوهم الفرس أنه يريد الديار المجاورة لها ، حتى استطاع تدمير أسوارها المنيعة وتحقيق النصر .

فصدت صدود البكرعند افتضاضها وهيهات كان السيف حتما سفـاده

فيا ظفرَا عم البلاد صلاحُـــــه بمن كان قد عمّ البلاد فســـاده

غداة كأن الهام في كل قـَـونِس كمائم نبت بالسيوف حصـــاده

فلا مطلقُ إلا وشُدّ وثاقـــــــه ولا موثق إلا وحُلّ صـِــفاده

ولا مِنبرُ إلا تَرنّح عـــــودُه ولا مُصحف إلا أنارَ مِـــدادُه

صدت هذه المدينة عن دخول المسلمين عليها مثل صدود البكر عند فض ختامها ، ولكن السيوف فعل هناك لفض الختام هذه المدينة ، ثم يعبر الشاعر عن صدى فتح مدينة الرها على البلاد الإسلامية ، فقد أصبحت مدينة عز وصلاح بعد أن كانت مدينة ذل وفساد ، ورؤوس الأعداء المقطوعة ما تزال في خوذها ، كمائم نبت على وشك التفتح ، ثم وظف المقابلة في رسم صورة للعدو الذين خسروا المعركة وكبلوا بالأصفاد ، وبين صورة المسلمين الذين تحرروا من الأسر وفك وثاقهم ، ويصور منابر مدينة الرها بإنسان يرقص تعبيرا عن فرحتها بزوال الاحتلال ، كما يعبر عن الهداية فالمصاحف أصبحت مشعة منيرة بعد أن كانت مدنسة من الصليبيين .

فإن يثكل الإبرانز فيها حياتـــــه وإلا فقل للنحم كيف سهـاده

وباتتْ سرايا القُمص تَقمِص دونها كما تتنزّى عن حَريق حراده

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدهـــا لقد ذل غاويكم وعزّ رشــاده

رويدكم لا مانع من مظفـــــــــر يعاند أسباب القضاء عنـــاده

مصيبُ سهامِ الرأي لو أن عزمَـــه رمى سدّ ذِي القرنين أصمَى سداده

وتبدو السخرية واضحة جلية من خلال وصفه للفرنج وهم مهزومين ، يتقافزون في أرض المعركة بعشوائية كما يتقافزمن تلسع رجليه النار، ويسأل : إلى أين سيذهب أسرى الضلالة ؟ بعد أن ضل قائدهم الذي كان يبعدهم عن الهداية والرشد ، مهلا أيها الكفار ، ليس لكم مانع من هذا المظفر الكبير عماد الدين زنكي ، وهذا البطل من أصحاب عقل راجح ، ورأي سديد ، له من الأهمية في الحرب مثل أهمية الرمح والسيف ، فالرأي والتخطيط عند ابن القيسراني لهما سهام تصيب فلا تخطئ ، وهما من القوة بحيث يستطيع بهما هدم سد ذي القرنين .

وقل لملوك الكفر تُسلِم بعدهـــــا ممالكها إن البلاد بـــــــلاده

كذا عن طريق الصبح أيتها الدجـى فيا طالما غال الظلام امـــتداده

فلو درج الأفلاك عنه تحـــــصنت لأمست صعادا فوقهن صعـــاده

ومن كان أملاك السماوات جنـــده فأية أرض لم ترضها جيـــــاده

ولله عزم ماء سيحـــــــان ورده وروضة قسطنطسنية مستـــراده

يأمرالشاعرملوك الكفر أن تخضع للملك عماد الدين زنكي بعد تلك المعركة القوية ، لأن كل البلاد أصبحت تحت سيطرته ، وكذلك يأمر للظلام أن يزول عن طريق الصبح ، والظلام مبثوتة في كل مكان كثير من الزمان ، وإذا كان أملاك السموات جند عماد الدين فإذا لم ترض الأرض بهذا الخيول الجياد فقط ، ونحن نشعر بالارتياح النفسي المطمئن لدى الشاعر من هذه الأبيات الأخيرة .

• مدح القاضى كمال الدين الشهرزوري مُهنئا بفتح الرها :-

ولم تكن مظاهر الابتهاج قاصرة على بلاط عماد الدين بل عمت الفرحة رجال الدولة ، ولذلك نرى ابن القيسراني يدخل على القاضى كمال الدين الشهرزوري مهنئا بفتح الرها أيضا في قصيدته ، لعل ان يكون له دورا بارزا في هذا الفتح المبين ، طبيعي أن يلعب قاضي القضاة دورا في أمور الدولة ، لا سيما مثل هذه الواقعة الكبيرة التي غيّرت جريان التاريخ إلى وجهة أخرى ، يقول :

(قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم بن مظفر بن على الشهرزوري أبو الفضل بن أبي محمد ، ولى قضاء الموصل وسمع وحدث ، كان عماد الدين يعتمد عليه كثيرا فانفذه رسولا عنه إلى بغداد سنة 530 هـ بعد خلع الراشد وبيعة المقتفي فاحرز لعماد الدين مكاسب وافرة ، وولاه نور الدين قضاء دمشق والشام ، وفوض إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف ودار الضرب ، وقيل أنه استوزره ، وذهب رسولا عن نور الدين إلى بغداد سنة 568 ، ولما دخل صلاح الدين دمشق عام 570 هـ أقره على ماهو عليه ، وتوفي في المحرم عام 572 بدمشق ، وكان أديبا شاعرا طريفا فكه المجلس [1].)

هي جنة المأوى فهل من خاطب ... لاث[2] الجواب على رسول الراغب

أن الصفائح[3] يوم صافحت الرها ... عطفت عليها كل أشرس[4] ناكب

فتح الفتوح مبشرا بتمامه ... كالفجر في صدر النهار الآيب

لله آية وقعة بدرية ... نصرت صحابتها بأيمن صاحب

ظفر كمال الدين كنت لقاحة ... كم ناهض بالحرب غير محارب

وأمدكم جيش الملائك نصرة ... بكتائب محفوفة بكتائب

جنبوا الدبور وقدمتم ريح الصبا ... جند النبوة هل لها من غالب

وخوافق قد توجت بأهلة ... وعوامل قد نصبت بكواكب

اترى الرها الورهاء يوم تمنعت ... ظنت وجوب السور سورة لاعب

فتح الضرام المصطلي لعلوجها ... بابا إلى جمر الجحيم الذاهب

باتوا أساطين الضلال وأصبحوا ... هدفا لقاذفة العذاب الواصب

أغراض رام لو رآها حاجب ... ما أفرجت عن قوساء يد حاجب

---

[1] الخريدة : ج 1 ص 323 – 327 ، ذيل تاريخ دمشق : 359 ، مرآة الزمان : ج 8 ص 340 -341 ، زبدة الحلب : ج 2 ص 312 ، مفرج الكروب : ج 1 ص 68 -70 ، البداية والنهاية : ج 12 ص 98 ، 296 -297 ، شذرات الذهب : ج 4 ص 243 ، الروضتين : ج 1 ص 89 -91 .

[2] لاث : لوى كلامه ولم يشرح ولم يصرح به

[3] صفيحة ج صفيح ، صفائح : السيف العريض

[4] أشرس : ساء خُلقه

لا أين ياأسرى المهالك بعدهـــا ضاق الفضاء على نجاة الهـارب

شدا إلى أرض الفرنجة بعدهـــا إن الدروب على الطريق اللاحب

أفغركم والثأر رهن دمائكـــــم ماكان من اطراق لحظ الطالـــب

وإذا رأيت الليث يجمع نفســـه دون الفريسة فهو عين الواثـــب

هذه جنة المأوى ، هل منكم أحد يحتاجون إليه ؟ ليس هناك إلا جواب غيرصريح ولا فصيح أمام هذا السؤال الذي سألهم الرسول ، يريد الشاعر بالجنة هناك الرها ، لأن فتح الرها كان رجاءا مغمورا في أعماق قلوب كل من يود انتصار على الفرنج ، وسبب اخفاء الجواب مشقة نيلها ، والسيوف العريض يوم فتح الرها عطفت أي رحمت على مواطنيها بقتل خبيث الخُلق ، وهذا هو فتح الفتوح ، مبشرا بتمام الفتوح في المستقبل وهي فتح القدس ، مثل الفجر في صدر كل يوم ، ثم يشبه ابن القيسراني فتح الرها بالمعركة بدر الكبرى للدلالة على أن معارك الممدوح هي امتداد لمعارك الإسلام ، ويمثل غزوة بدر الكبرى من شجاعة وبطولة وصمود وفصل بين الحق والباطل ، وظفرالقاضي كمال الدين الشهرزوري في هذه المعركة ، وكان سببا لإيثارالمعركة بين الفريقين ، ولكنه ليس من المحاربين .

أمد الله في هذه المعركة المسلمين بكتائب الملائكة المنزولين من السماء مردفين ، ومنع هذه الملائكة المسلمين من الإدبار والتولية في يوم الزحف ، هو من أعظم الذنب عند الله ، وقدم المسلمين نحوالكفارمثل ريح الصبا ، لأنهم جند النبوة وجند الله ، لا يقدرلاحد على وجه الأرض انتصار عليهم ، والنسيم في يوم المعركة حفي في السير مع الهلال ، وعوامل قد نصبت بكواكب السماوية ، ويقول الشاعر : أترى الرها البيضاء في يوم الغزو ؟ ظنت الرها السور واجب للذوذ عن هجومة الفرنج ، باتوا أساطين الضلال وقُذفوا بالعذاب المهين كذالك ، وكانت أجساد جنود الفرنج غرض الرامي ، لو رآها أبطال المسلمين لا يستطيع لهم النجاح من قوسهم ، ويسأل للأسرى : إلى أين المفر يا أسرى المهالك بعد هذه الوقعة ؟ ضاق الفضاء أمامكم ولو كان فسيحا من الفرار والنجاح ، وذهبوا إلى أرض الفرنجة بعدها وكانت سكة الباب واسعة ، ويختم بالتشبيه الممدوح بالليث ، بقوله : *وإذا رأيت الليث يجمع نفسه دون الفريسة وهو عين الواثب* .

• مدح جمال الدين ، وزير الدولة الأتابكة بالموصل بفتح الرها : -

كما أنه هنأ أيضا وزير الدولة الأتابكة بالموصل الملقب جمال الدين لهذا الفتح يعني فتح الرها ، ونشد قصيدة طويلة ، وهو يعبر عن أن فتح الرها " مقدمة " أو " باب " للوصول إلى القدس ، وإلى استرداد الساحل ، ويشعر بضرورة استرداد أجزاء من وطنه تقع في يد المغتصب .

(محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني أبو جعفر ، اتصل بزنكي ووزرله وكان ينفرد بالحكم في دولته ، ثم أصبح وزير السيف الدين غازي بن عماد الدين بالموصل ، وعندما توفي سيف الدين عام 544 هـ خلفه أخوه قطب الدين استمر جمال الدين في الوزارة ، كان جوادا كثير الصدقات ، بنى مسجد الخيف بمنى وزخرف الكعبة بالذهب وأجرى الماء إلى عرفات وبنى سورا على مدينة النبي ، ولم تدم نعمته إذ أغرى الحاسدين بينه وبين قطب الدين فحبسه

سنة 558 هـ ، وبقي في الحبس مدة سنة ثم مرض وتوفي عام 559 هـ ، ودفن بالموصل ثم أخرج نعشه وحمل إلى مكة فالمدينة حيث دفن ، له ديوان رسائل جمعه أبوالسعادات ابن الأثير وسماه : *كتاب الجواهر واللآلي من أملاء الوزير الجلالي* ، ومدحه الشعراء كحيص بيص وابن منير وابن قسيم الحموي والعرقلة الكلبي وعلي بن يقظان السبتي [1] .)

يقول في القصيدة :

أما آن أن يُزهق الباطـــــل ... وأن يُنجز العِدّة الماطـل

إلى كم يُغبُّ ملوك الضـــلال ... سيفُ باعناقها كافـــــل

فلا تحفَلنَّ بصَـــــول الذئاب ... وقد زار الأسد الباســـل

كذا ما انثنت قطّ صِمُّ[2] الرماح ... أو يتثنّى القنا الذابـــــل

هو السيف إلا تكن حامـــلا ... لِبزَّتِه[3] بَزَّك[4] الحامـــــل

وهل يمنع الدينَ إلا فتـــــىَ ... يصول انتقاما فيستأصل

أبا جعفر أشرقتَ دولـــــة ... أضاء لها بدرُك الكامـل

فإما نُصبْتَ لرفع اسمـــــها ... فإنكما الفعلُ والفاعـــل

بك انقاد جامحها المُصعَبـيّ[5] ... وأخصب جانبها الماحل [6]

لِيَهنِك ما أفرج النصر عنـــه ... وما ناله الملك العـــادل

فتوح الفتوحات نظم القنـــاة ... أعلى أنابيبها العامـــــل

فقل للحِقاق[7] الطريقَ الطـريقَ ... فقد دلف المُقرَم[8] البـــازل

وجاهد في الله حق الجهـــاد ... محتسب بالعُلى قافـــــل

بجيش إذا أم ورد الثغـــــور ... يروّي به الأسل الناهـــل

إذا شمّر البأس عن ساقـــه[9] ... مضى وهو في نقعه رافل

فيا نعمة شمل الشاكـــــرين ... فضلك إفضالُها الشامـــل

---

[1] ذيل تاريخ دمشق : 286 هـ ، 306 -307 ، الخريدة : ج 1 ص 180 -181 ، أخبار الحكماء : 160 ، البداية النهاية : ج 12 ص 248 -249 ، النجوم الزاهرة : ج 5 ص 365 ، شذرات الذهب : ج 4 ص 185 .

[2] الصم : الداهية الشديدة

[3] البزّة : الثياب ، السلاح ، الهيئة .

[4] بزّ : غلب

[5] المصعبي : الفرس لم يُركب .

[6] المحل ج المحول : الشدة ، الجذب

[7] الحقاق : ماشية التي كمل عقلها وفهمها

[8] المقرم من الماشية : الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للضراب

[9] شمّرت عن ساقيها : اشتدت

تمخّض عزمُ لها مُـــــنجب فيا سعد ما وضعت حامـل

غَداة ولا رُمح دون الطّعــان إلا وعَقربه شائـــــــــــل

ولا نصلَ إلا له بـــــــــارقُ دماء الطّلى تحته وابـــل

وقد قلّدوا السيف تحصينُهــم ولكنه الناصر الخـــــاذل

وهل يُمنع السورُ من طالــع يُشايعه القدر النـــــــازل

شققتم إليها بحار الحـــــديد مُلتطِما مَوجُه الهاطـــــل

وخُضتم غِمار الرّدي بالرّدى وعن نفسه يدفع القاتـــــل

فإن يك فتحُ الرّها لُجـــّـــة فساحلها القدس والساحـــل

فهل علمتْ علمَ تلك الديــار أن المقيم بها راحـــــــــل

أرى القمص[1]يأمل فوت الرماح ولا بدّ أن يُضربَ السابـــل

يقوّي معاقله جاهـــــــدا وهل عاقلُ بعدها عاقـــــل

وكيف يضبط بواقي الجهات لمن فات حِسبته الحاصـــل

برأيك في الحرب أم لفظك استفاد إصابته النابـــــــــل

وعن حدّ عزمك في المشكلات قَضى فَمضى الصارم القاصل

نشرتَ الفضائلَ بعد الخمول ألا رُبّما نَبه الخامـــــــــل

وحُطّتَ البلاد على نأيهـــا كأنك في كـــــــــلِها نازل

أتعفوا الممالكُ من حافـــظ وصدرُك من حفظها آهـــل

ولِم لا تُحيط بآفاقهـــــــا وفي يدك الصامت القائـــل

إذا ما علا الخمسَ في حومةِ ففارسُ بُهمَتِها راجـــــــل

يُفيض على الطِّرس سحرالبيان كأن بَنانته بابـــــــــــل

متى تُرك الحمدُ والمرهفاتُ فأحمدها القاطع الواصـــل

بسابقة العلم فُتّ الأنـــــــام وهل يدرك العالم الجاهـــل

إذا خطب الأكرمون الثنـــاء فأكرم أصهارك الفاضـــل

اعِزَّ الكفاةِ وتاجُ العـــراق من كفُّه بالنّدى حافـــل

[1] القُمص : الفرس وغيره الذي يرفع يديه معا وطرحهما معا وعجن برجليه .

تأمّلْ مطالع هذا الكـــلام وإلا فكوكبه آفـــــــل

آرى القوم تلقح آمالهـــم وحالي من دونِه حائـــل

فهل لي على البُعد من قُربـةٍ يديل بها فضلك الدائـــل

فإن الغمام بعيد المنـــــال وفي كل فج له نائـــــل

وأنت الزمان وأنت الأمــان من كل ما يفرق الذاهـــل

وأنت الحلي على المكرمـات فلا وصفت أنها عاطـــل

لحض ابن القيسراني ممدوحه على إنجاز وعده بقتال الفرنجة ، ليسود الحق ويزهق الباطل ، سيفه تكفل بأعناق الأعداء ، الذين وصفهم بملوك الضلال ، ويشبه ممدوحه بالاسد في قوته وسطوته ، ويصور الفرنجة بالذئاب الضعيفة ، التي لا تساوي شيئا بحضورالأسد ، كذلك ارتد فتنة الرماح والقنا ، هو السيف الذي إذا لم يحمل السيف يمزك حامل السيف ، دفع هذا الفتى الذي يصول انتقاما للأعداء عن الدين ، فاستاصلهم ، هذا الوزير ابوجعفر اشرق دولة الإسلامية بنور بدره الكامل ، إذا نُصب هذا الوزير لرفع اسم هذا البلاد فإذا هو الفعل والفاعل ، ويشبه الفرنج بالفرس الذي لم يُركب من قبل ، وانقاده بقوته ، وكذلك أخصب الممدوح هذا البلاد الماحل القفر ، نالت هذه الفتوحات القناة العاملة في ايدي المسلمين ، يقول الشاعر للوزير : قل لحصانك الذي كمل عقله وفهمه احذر الطريق ! فإذا مشى رويدا هذا الباسل الذي طلع نابه مع الفخامة والهيبة . وجاهدتَ في سبيل الله حق الجهاد محتسبا ، وإذا اشتدت الحرب وهو يمشي على نقعها جارّا ذيله ، ويا نعمة الشاكرين فضلك عليهم شامل ، ويا منجب الذي وَلَدَ النجباء : تمخض عزمه منجب من الولدان ، فيا سعد ما وضعت حامل في هذا العالم ، واصبح ليس له إلا رمح واحد للطعن مثل العقرب المرتفع ذيله ، وله نصل لامع يقطر دم الطلى منه مثل وبل ، (الطليّ ج طليان : الصغير من أولاد الغنم ، سمي بذلك لأنه يطلى أي تشد رجله بخيط إلى وتد أياما ، المراد هنا الأعداء) ألقوا حمالة السيف في اعناقهم لتحصينهم ولكن هذا هو الوزير الناصر الخاذل الأعداء ، وهل يقدر السور أن يمنع قدر النازل من الله ، وشققتم أيها المسلمون إليهم بحار الحديد ملتطما موجه الهاطل ، هذا الوزير شجاعا مقداما ، من خلال الجيش والجنود الذين معه ، ولكل منهم مسؤولية كاملة في الحرب معا ، استعمل الشاعر كلمة الجمع " خضتم " للدلالة على أن خوض غمار الحرب كان جماعيا من الجيش ، وكانوا في الحرب مثل البنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا ، إذا شبّهنا فتح الرها للجة فإذا فتح القدس مثل ساحلها فقط ، فهل علمت عن ديار الأعداء في الرها ؟ المقيمون هنا يرتحلون طالبين ملجأ مناسبا يلجأهم ، يأمل أفاراس الأعداء التي يرفع رجليها معا ويطرح بهما معا (هذا يقال' القمص ') فوت رماح المسلمين فإذا فقط يستطيع لها أن ينجو من المطر الذي يقطر قطر الدم الأعداء ، وهذه الأفراس يحصلون على معاقلها اي ملاجأها بعد الجهد لحصن أجسامها من المشقة الباس ، فإذا يقول الشاعر : وهل عاقل بعدعا عاقل ! كيف يقي الجهات بضبط من فات قوة تدبيره الذي حصل عليها من قبل ، وكيف اصبت هذا الفتح العظيم ، برأيك أم لفظك ؟ بحداد عزمك في المشكلات مثل الحروب قضيتَ على الأعداء بسيفك الصارم القاصل ، كذلك نشرت فضائلك بعد ما كنت مخمولا بفتح هذا الحصن المسمى بالرها ، ورُب من أصبحوا مشهورين بعد ما كانوا مخمولين

، وهبطتَ في هذا البلد ، وكنت بعيدا عنه من قبل ،أنت اليوم كمن عاش في جميع أنحاء هذا البلاد ، يعفو الممالك (هم عامة الناس) لمَلِكهم بسرورهم في هذا الفتح ، وصدره مؤنس من حفظ هذا البلاد أيضا ، ولماذا أنت لا تحيط بأفاق كلها من قبل ؟ ولوكان في يدك الصامت والقائل ! يعني السيف القاطع . يفيض على الأوراق وصف أعمالك الساحرة ببنانك الساحرة ، ومتي ترك هذا الرجل العظيم الحمد والسيف المحدّد مرقق الحد ؟ في مسابقة العلم مزّقت المخلوقات كلها ، وهل يساوي العالم والجاهل ؟ وأنت كريم مخاطَب من الناس بكرمك ، وكيف لا ؟ أصهارك وأهل بيتك من الكرماء . وأنت تاج العراق وأعزهم بكفو الكرماء الذين حكموا البلاد ، ويديك حافل بالعطايا والهبات لعامة الناس ، يا صاحب العظمة عليك أن تفكر مطلع هذا الكلام وإلا يغيب كوكبه ، المطلع هناك ممكن أن يكون مبدأ القول أو مكان طلوع الكواكب . وقومه يزداد آمالهم من هذا الرجل العظيم ، وإذا لم يكن هناك حالي أيضا حائل . ما هو السبيل القرب إليه إذا كنتُ بعيدا ؟ فإذا فقط يكون فضله متداولا بيننا ، وإن غمام عطاي الممدوح بعيدا جدا ، وفي كل فج ينال مطر العطايا والهبات ، وأنت يامدوح الزمان والأمان من كل مشكلات تفرق مذهول القلوب ، وأنت حُليُ المكرمات ، ولا يقول أحد أنه عاطل من هذه الأوصاف كلها .

3 . مع نور الدين محمود زنكي : -

كان عماد الدين زنكي أثناء حصاره قلعة جعبريقاتل أطراف النهار ويذهب إلى فراشه آناء الليل ، فبينما هو في الليلة الخامسة من شهرربيع الآخرعام 541 هـ مستغرق في سبات عميق ، إذ دخل عليه نفر من مماليكه وانقضوا عليه وقتلوه غيلة دون أن يجهزوا عليه ، وذهب الرجل الذي وقف أيامه على الجهاد شهيدا ولقب بعد موته بالشهيد ، ولا نشك في أن الشاعر رثاه وإن لم تصلنا قصيدته في رثائه ، وبعد مقتله خلفه ابنه نورالدين وعاد من حصار جعبر إلى حلب ، ومنذ هذا التاريخ حتى عام 546 هـ يظل ابن القيسراني في بلاط نور الدين جاعلا من شعره سجلا لأحداث جهاده ووقائعه .

• فتح يَغرى ، سنة 543 هـ :

وفي سنة 534 هـ تجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ويغيروا عليها ، وعلم نور الدين بالأمر فقصدهم بعسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديدا حتى انهزم الفرنج ، وقتل الكثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ، ولم ينج من ذلك الجمع إلا قليل ، وفي هذه الوقت أنشد ابن القيسراني هذه الأبيات : *ياليت أن الصد مصدود* .....الخ

وبالنسبة لهذه الوقعة وقصيدة ابن القيسراني فيها نجد أنفسنا أمام خلط وتناقض شديدين في ما سطره أبوا شامة في الروضتين ، فهو يقول - نقلا عن ابن الأثير- أن نور الدين سار في سنة 543 هـ إلى بصرى ، وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام ، فالتقى بهم هناك واقتتلوا أشد قتال ، ثم انزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج ، وكانوا بين قتيل وأسير ، وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني مهنئا لنور الدين هذه القصيدة : *ياليت أن الصد مصدود* .... الخ ثم يورد أن ابن القيسراني قال في نور الدين قصيدة ، أنشده إياها بظاهر حلب بعد كسرة الفرنج على يغرى وانهزامهم إلى حصن حارم ، أولها :

تفي بضمانها البيض الحداد وتقضي دينها السمر الصعاد

وهذا وهم بين ، لأن القصيدة : *تفي بضمانها* ..... إلخ فيها إشارة إلى معركة إنّب - كما لاحظ أبوشامة نفسه - ووقعة إنب كانت سنة 544 هـ ، فلا بد أن تكون قصيدة : *تفي بضمانها* .....إلخ قيلت بعدها ، أما وقعة يغرى فقد كانت سنة 543 هـ - كما وردت المصادر التي أخذنا عنها - ومن ضمنها تاريخ الأتابكة الذي اعتاد أبوشامة النقل عنه ، وما نراه أن أبا شامة ربما نقل خطأ عن ابن الأثيرفكتب بصرى بدل يغرى في حديثه عن الوقعة التي قيلت فيها قصيدة *: ياليت أن الصد مصدود* .... إلخ ، فأدى به هذا الخطأ إلى ما وقع فيه من الخلط التاريخي ومن ثم الخلط في نسبة القصيدتين .

مدح ابن القيسراني نورالدين في هذه القصيدة بعد فتح يَغرى ، بقوله :

ياليت أن الصد مصـــــدود أولا فليت النوم مـــــــردود

إلى متى تعرض عن مغـرم في خده للدمع أخـــــــــدود

قالوا عيون البيض بيـــض الظبى قلت ولكن هذه سـود

يخاف منها وهي في جفنهـا والسيف يخشى وهو مغمـود

وكيف لانثني على عيشنا ال محمودوالسلطان محمـــــود

فليشكرالناس ظلال المنـــى إن رواق العدل ممـــــــدود

ونيرات الملك وهاجـــــة وطالع الدولة مسعـــــــــود

وصارم الإسلام لا ينثنـــــي إلا وشلوا الكفر مـــــقدود

مناقب لم تك موجـــــــودة إلا ونور الدين موجـــــود

مظفر في درعه ضيغـــــم عليه تاج الملك معقـــــــود

نال المعالي حاكما مالكـــا فهو سليمـــــــــان وداوود

ترتشف الأفواه أسيافـــــه إن رضاب العز مـــــورود

وكم له من وقعة يومهـــا عند ملوك الشرك مـــــشهود

والقوم إما مرهق صرعـــة أوموثق بالقد مـــــــشدود

حتى إذا عادوا إلى مثلهـــا قالت لهم هيبته عـــــــودوا

طالب بثأر ضمنته الظبـــى فكل ما يضمن مـــــــردود

والكر والفر سجال الوغـــى فطارد طورا ومطـــــــرود

وإنما الإفرنج من بغيهـــا عاد وقد عاد لها هـــــــود

قد حصحص الحق فماجاحد في قلبه باسك مجحـــــــــــود

فكل مصر بك مستفتـــــــح وكل ثغر بك مـــــــــــسدود

ياليت هذا الجبل أو المكان المرتفع يكون ممنوعا من دخلول الأعداء أو لا فياليت النوم عائدا إلى عيني ، إلى متى تعرض عن الرجل الذي أزعجه الحب المعذّب القلب وفي خديه علامة لسيل الدمع المتواتر كقناة ، قالو عين البيض هي عين الظبي فأجبت هذه سود ، يخاف الأعداء من هذه العين ولو كانت نائمة ولا عجب لأن الأعداء يخاف من السيف عند ما كان مغمودا ، بعد هذا الفتح نحن نعيش عيشة محمودة ، ولذلك نحن نثني عيشنا ، وسبب هذه الحالحة المحمودة هذا السلطان العظيم ، وهذا السلطان ظلال المنى لعامة الناس ، ولذلك وهم يشكرون عليه ، ورواق (سقف في مقدم البيت أو كساء مرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض) العدل عنده مطول حتى إلى الإرض ، هذا هو تشبيه لحسن عدله ، ونيران ملكه وهاجة ، وطالع يعني هلال الدولة مسعود ، وشجعان الإسلام لا يدبر حتى وشلوا وضعفوا وافتقروا الكفر وقطعه مستأصلا ، المفخرة (ضد المثلبة) لم تك موجودة في الأرض إلا إذا لم يك هناك نورالدين محمود زنكي ، ثم وظّف الشاعر صورة الأسد هناك ، ليقدم لنا ممدوحه بطلا في الحرب ، وقائدا مقداما لا يهاب عدوا ، ولا تقف في وجهه الصعاب ، فذكر من الألفاظ التي تدل على الأسد ، الضيغم والليث ، ويشبهه أيضا لنبيا الله داوود وسليمان عليهما السلام لبيان علمه وحكمته ، وترتشف (يبالغ في مصه) الأعداء سيفه لسرعة الموت ، ولسيفه رُضاب العزة ، وكم من الوقائع كانت من قبل في حروب شهد فيها ملوك الكفر والشرك ، وقومهم جاءوا للقتال إما مرهقا أو بوعيد السوط الموجود في أيدي الملوك ، ويوكد الشاعر أهمية القوة النابعة من القيادة الحازمة التي يمثلها ممدوحه ، فهيبته ترد الأعداء ، إذا فكروا بأن يعودا إلى حرب المسلمين ، ويصور الشاعر الإفرنج في فسادهم وظلمهم ، وكيف أن الله هزمهم في حربهم ضد المسلمين على يد نور الدين ، حين قاتلهم في حلب فقتل عدد كبير منهم ، بقوم عاد الذين كذبوا رسولهم فأرسل الله عليهم العذاب فأبادهم عن آخرهم ، وليؤكد الشاعرحقيقة أن الحق لا بد له أن يظهر وينتصر في نهاية الأمر ، واستعمل الكلمة ' حصحص ' ، هذه كلمة قرآنية ، كما قال تعالى : { **قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق** } ، ويختتم هذه القصيدة بقوله : فكل مصر بك مستفتح وكل ثغر بك مسدود .

- **فتح إنّب سنة 544 هـ :**

وفي صفر من سنة 544 هـ قصد نورالدين حصن حارم - وهو للفرنج - فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ، ثم رحل إلى حصن إنب فحصره ، فاجتمعة الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحّلواه عن إنّب فلم يرحل ، بل لقيهم وتصاف الفريقان ، واقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين من الشجاعة الصبر في الحرب على حداثة سنة ما تعجب منه الناس ، وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا ، وفيمن قتل البريس صاحب أنطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج ، وذوي التقدم فيهم والمال ، وأكثر الشعراء من مدح نور الدين بعد هذه الوقعة ، وفيها يقول ابن القيسراني من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد ، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية ، يقول :

هَذي العزائم لاما تدعي القُضـب وذي المكارم لا ما قالت الكتـب

وهذه الهمم اللاتي متى خُطبـــــت تعثّرت خلفها الأشعاروالخُلـب

صافحت يا ابن عماد الدبن ذورتها براحة للمساعي دونها تعـــب

ما زال جدك يبني كل شاهقـــــة حتى ابتني قبة أوتادها الشهـــب

لله عزمك ما أمضى وهمك مـــا أفضى اتساعا بما ضاقت به الحقب

يا ساهدالطرف والأجفان هاجعـة وثابت القلب والأحشاء تضطـرب

أغرت سيوفك بالإفرنج راجفـــة فؤاد رومية الكبرى لها يجـــب

ضربت كبشهم منها بقاصمـــــة أودى بهاالصلب وانحطت بهاالصلب

قل للطغاة وإن صمت مسامعهـا قولا لصم القنا في ذكـــره ارب

ما يوم إنب والأيام دائلـــــــة من يوم يغرى بعيد لا ولا كثـب

أغركم خدعة الآمال ظنكـــــم كم أسلم الجهل ظنا غره الكـذب

غضبت للدبن حتى لم يفتك رضـى وكان دين الهدى مرضاته الغضب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنـــب

حتى استطار شرار الزند قادحـة فالحرب تضرم والآجال تحتطـب

والخيل من تحت قتلا تخرلهـــا قوائم خانهن الركض والخبـــب

والنقع فوق صِقال البيض منعقـد كما استقل دخان تحته لهـــــب

والسيف هام على هام بمعركـــة لاالبيض ذو ذمة فيها ولا اليَلـب

والنّبل كالوَبل هطّال وليس لـــه سوى القِسيّ وأيدِ فوقها سحـــب

وللظبى ظفرحلومذاقـــــــه كأنهما الضرب فيما بينهم ضـرب

وللأسنة عما في صدورهـــم مصادر أقلوب تلك أم قلـــــب

خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم فاستسلموا وهي لا نبع ولا غـرب

كذاك من لم يُوقِّ الله مَّهجتـــــه لاقى العِدى والقَنا في كفه قضـب

كانت سيوفهم أوحى حتوفهـــم يارب حائنة منجاتها العطـــــب

حتى الطوارق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها النـوب

أجسادهم في ثياب من دمائهـــم مسلوبة وكأن القوم ما سلبـــــوا

أنباء مُلحمةٍ لو أنها ذُكـــــــرت فيما مضى نَسِيتْ أيامها العـرب

من كان يغزوبلاد الشرك مُكتسبا من الملوك فنور الدين مُحتسـب

ذو غرة ما سمت والليل مـــــــر إلاتمزق عن شمس الضحى الحجب

أفعاله كاسمه في كل حادثـــــــة ووجهه نائب عن وصفه اللقــب

في كل يوم لفكري من وقائعــه شغل فكل مديحي فيه مقتضــب

من باتت الأسد أسرى في سلاسلـه هل يأسرالغلب إلا من له الغلـب

فملكوا سلب الإبرنز قاتلـــــه وهل له غير أنطاكية سلـــــب

من للشقي بما لا قت فوارســـه وإن بسائرها من تحته قتـــــب

عجبت للصّعدة السمراء مثمـرة برأسه إن اثمار القنا عجـــــب

سما عليها سمو الماء ارهقـــه أُنبوبة في صعود أصلها صبــب

ما فارقت عذبات التاج مفرقـــة إلاوهامته تاج ولا عـــــــذب

إذا القناة ابتغت في رأسه نفقـــا بدا لثعلبها من نحره ســـــرب

كنا نعد حمى أطرافنا ظفـــــرا فملكتك الظبى ما ليس نحتبــس

عمت فتوحك بالعدى معاقلهـــا كأن تسليم هذا عند ذا جـــرب

لم يبق منهم سوى بَيض بلا رمق كما التوى بعد رأس الحية الذنـب

فانهض إلى المسجدالأقصى بذي لجب يوليك إقصى المنى فالقدس مرتقب

وائذن لموجك في تطهير ساحــه فإنما أنت بحرلجة لجـــــــب

يامن أعاد ثغور الشام ضاحكــة من الظبى عن ثغور زانها الشــب

ما زلت تلحق عاصيها بطائعها حتى أقمت وأنطاكية حلـــــب

حللت من عقلها أيدي معاقلهـــا استحلفت وإلى منثاقك الهـــرب

وأيقنت أنها تتلو مراكزهـــــا وكيف يثبت بيت ماله طنـــــب

أجريت من ثغر الأعناق أنفسها جرى الجفون امتراها بارح حصـب

وما ركزت القنا إلا ومنك علـــى جسر الحديد هزبرغيله أشـــــب

فاسعد بما نلته من كل صالحـة يأوي إلى جنة المأوى لهـــا حسب

إلا تكن أحد الأبدال في فلــك التقوى ، نتمارى أنك القطــب

فلو تناسب أفلاك السماء بهــا لكان بينكما من عفة نســـــب

هذا وهل كان الإسلام مكرمة إلا شهدت وعباد الهوى غيــب

إن العزائم هي التي تحقق النصر ، وهي التي تفصل بين الجد والهزل ، والسيف بلا عزيمة وشجاعة ليس له قيمة ، والعزيمة أصدق حديثا من الكتب والقُضُب (السيف القطاع) في كشف الحقائق ، تعس وهلك أمام هذه العزائم الأشعار والخُطب ، وهذا النصر عند الشاعر عظيم ، فلا يقدر أحد أن يفيه حقه في الوصف والخطابة ، لعظمته وأهميته ، وإن تحقيقه ليس بالأماني ، بل بالقوة الصبر على الشدائد ، مع تأكيد الشاعر على أن الراحة ، وضبط أمور الدولة ، وبسط سيطرتها على أراضيها ، وتأمين حدودها مع العدو ، لا يتأتى بعد جهد كبير وعمل مضن ، وهذا ما أكده الشاعر بقول : *صافحت يا بن عماد الدين ....الخ* ، بنى أجدادك الأبطال قصور شاهقات ، ليس بالطين والآجر ، بل بنوا أوتادها بالشهب ، وقوة عزمك وهمك من الله ، وهي تتسع أحقاب الضيقة التي تجري منذ طول زمان ، ويسهد عيناه من النوم ، ويثبت قلبه من الاضطراب ، ولسيفه حركة سريعة طوال القتال ، حتى يخاف منها الروم ، ضربت بسيفك القاصم كبشهم ، فإذا هلك كل شيئ حتى الصلب ، ماكان يوم إنب مختلفا من يوم يغرى الذي خسر فيها أيضا الفرنج ، وخُدع الفرنج بخدعتهم وسوع ظنهم ، وكم من الناس أسلموا بجهلهم ، ولكن الفرنج خُدعوا بالكذب ، وعضبت يامدوح للدين ، لأنه من كمال الإيمان ، فإذا ما فتكت رضى المخلوقات لنيل رضى الله فإذا فقط يكمل الإيمان ، ولذا علينا أن نبعض بعض الناس في رضى الله تبارك وتعالى .

وطهرتَ يا ملك هذا البلد من دماء أعداء الله ، لكل سيف مكان خاص لطهارته من دماءهم ، استطار شرار الزندقة قادحة من بلادهم بجهده ، فالحرب تضرم لهبها ، ووقت الموت تجمع حطب الحرب ، ويصورجواد الممدوح أنه لايستطيع الركض ، ولا الخبب بكثرة القتلى ، ثم يبدو التشبيه التمثيلي واضحا جليا من خلال وصف ابن القيسراني لغبار المعركة بأنه كثيف جدا كالظلام حتى بدت السيوف اللامعة من خلال هذا الغبار كأنها شهب في الظلام ، فشبه الشاعر صورة السيوف وهي تلمع وسط الغبار الكثيف بصورة الشهب وهي تلمع في الليل ، ويستخدم الجناس المستوفي بين 'هام ' بمعنى ساقط و'هام ' جمع هامة وهي الرأس ، ثم يستخدم الجناس الناقص في البيت التالي بين ' النبل ' و' الوبل ' ليحقق بذلك المعنى المقصود في صورته ، ويؤطي للحرب صفتها في الشدة والقوة ، بحيث ان الأعداء لم يفرقوا بين السهام بضرب أجسادهم ، وحبّات المطرالمتساقطة عليهم ، وللطبي ظفر مذاقه حلو ، وبين الظباء ضرب من الاعتداء ، خانوا المسلمين بخلف وعدهم فخانهم رماح الطعن في الحرب ، وأخيرا استسلموا أمام المسلمين ، ويقول أن نور الدين محارب رباني يحوطه الله بعنايته ، واثقا بنصر الله له ، لأن النصر من عند الله ، وليس بكثرة العدة والعتاد ، وأن الأسلحة مهما كانت كثيرة ومتنوعة ، فإنها لا تساوي شيئا في يد المحارب ، إن لم يكن معتمدا على الله في طلب النصر ، وقد نصر الله نور الدين بتقواه واتباعه أوامره ، وحضه الناس على ذلك فاستحق نصر الله ، أوحى لهم سيوفهم عن قتلهم قبل أن تشاركهم في الحرب ، ورب رجل هلك ملجأهم من الحتوف من قبل ، والداهية تدور حولهم في كل وقت منوبا ، أجسادهم مسلوبة من ثياب دمائهم حيث لم يسلوا أحد

من قبل هذا ، إذا ذكرت أنباء ملحمة وقعت من قبل فينسى العرب أيامهم ، ولكن هذه الواقعة مذكورة طوال التاريخ ، من الملوك من يقاتلون لنيل بعض غرض الحياة الدنيوية ، ولكن نورالدين محمود زنكي من الذين يعملون هذا العمل لنيل غرض الآخرة ، يقوده الاحتساب فقط ، وجهه لامعة في الليل المعتكر إلا إذا مُزّقت من وجه الشمس حجبها ، وله مكانة خاصة في أفكاري اليومية وله أيضا في مدحي سهم كبير، وهو ليس أسدا وحسب ، بل يأسر الأسود ويتغلب عليها ، للدلالة على تميزه في شجاعته وقوته ، التي أهلته لأن يكون سيد تلك الأسود ، ملك جيش نور الدين ما سلب جيش الإبرنزمن أنطاكية ، ثم يقول هل يستطيع أن ينهب إلا من أنطاكية ؟ وقد قتل في هذا الحرب ، ويستخدم ابن القيسراني السخرية في رسم صورة فنية بعبارات حقيقية خالية من المجاز في رسم أوضاع طبيعية في صور معكوسة ، على نحو ما صور رأس الإبرنز وهو ثمرة للقناة ، ومن العجيب أن ينبت للقناة ثمر ، وحين تبتغي القناة في رأسه نفقا ، فإنها تجد سربا لثعلبها في نحره ، ويرسم صورة مضحكة لجثث القتلى وقد التفت على بعضها ، مثل الحية عندما يقطع رأسها ، واستخدم الشاعر كثيرمن الكلمات الجناسية في الوزن والقافية حينما صور سقوط معاقل العدو تلو الآخرمثل : الكتب ، والخطب ، والتعب ، والجرب ، وشبهه بالمرض الجرب المعدي الذي يصيب الإنسان ، فينتقل إلى غيره فيصيبه ، فيسقط مثل سابقه ، قد أخذ ممدوحه معاقل الأعداء سليمة ، لأنها سلمت له نفسها طواعية دون جرب أو خراب ،

وفي مشهد ساخر يصور ابن القيسراني جثث قتلى المشركين ، وقد تناثرت على أرض المشركة ، وهم صرعى لا حراك فيهم ، فالمشهد الأول : جنود الأعداء صرعى في أرض المعركة مهشمة رؤوسهم ، والمشهد الثاني : الحيّة وقد هشّم رأسها فالتف الذنب حوله ، للدلالة على الموت ، فانهض يا ملك الكبير إلى المسجد الأقصى هناك لجب بصوت الناس الذين يضطربون بأشد الفرح ، ويوليك هذا القدس أقصى أنواع من المُنى هذا هو تحريرها من الكفار، والقدس في ارتقابك لرأيتك ، ثم استخدم الشاعر استعارة تصريحية ، في الربط بين نورالدين وجيشه وبين الماء في الكثرة ، فهو بحر وجنوده أمواج تغسل الساحل من دنس الفرنج ، ويرحب الشاعر الممدوح مخاطبا عليه بقوله : يا من أعاد ثغور بلاد الشام ضاحكة مثل ضحك الظبي بأسنة شنبة ، حوّلتَ العاصي طائعا بشجاعتك ، وأقمتَ أيضا بلاد الحلب وأنطاكية ، حللتَ من معاقل الفرنج المسلمين (معقل : مكان يشد هناك الإبل وغيرها من البهائم) ، واستحلفوا لك بالهرب من هذا البلد ، وهم يخلفون وعدهم ، ولذاظاهرمن وعدهم وهم يحاول أن يبنى مركزهم في مكان قريب ، فإذا كيف يثبت بيت المال المسلمين هناك ؟ وأنت سعيد ياملك الكبير! لأنك نلتَ كثيرا من الأعمال الصالحات بهذا الفتح المبين ، وهذه الأعمال تهديك إلى الجنة المأوى ، نحن في يقين أنك في فلك التقوى قطبها ، إذا تناسب واحد من الفلك إليك فإذا يكون بينكما عفة ونسب ، وهل يكون الإسلام مكرمة لهؤلاء المسلمين إلا إذا شهدت في هذا الوقت المناسب ؟ ولست عابد الهوى .

• وقد قال ابن القيسراني قصيدة ثانية أشار فيها إلى انتصار نورالدين في إنّب ، أنشده إياها بظاهر حلب ، هذه هي القصيدة :

تفي بضمانها البيض الحـداد وتقضي دينها السمر الصعـــاد

وتدرك ثارها من كل بــاغ فوارس من عزائمها الجلاد

ويغشى حومة الهيجا هــام يشد بضبعه السبع الشــداد

أظنوا أن نار الحرب تخبـو ونور الدين في يده الزنـــاد

وجند كالصقور على صقور إذا انقضواعلى الأبطال صادوا

إذا أخفوا مكيدتهم أخافـــوا وإن أبدوا عداوتهم أبـــــادوا

ونصرة دولة حاميت عنهـا وهل يخشى وأنت لها عمــاد

وإن تتل القوافي ما تتلـــه بإنب ما يؤنبها سنـــــــــاد

جرت بالنصر أقلام العوالي وليس سوى النجيع لها مــداد

وطالت أرؤس الأعلاج خصبا فنادى السيف قد وقع الحصاد

أحطت بهم فكان القتل صبرا ولا طعن هناك ولا طـــــراد

وللإبرنز فوق الرمـــــح رأس توسد والسنان له وســـــــاد

ترجل للسلام ففرســـــــوه وليس سوى القناة له جـــــواد

غضيض المقلتين ولا نعـاس وغائرها وليس به سهـــــــاد

فسر واستوعب الدنيا فتوحا فلا هضب هناك ولا وهـــاد

وزربني الوغى مثوى حبيب فما عن باب مسلمة ذيـــــــاد

ولا في باب فارس غير ثكلى بفارسها يضيق بها الحـــــداد

لأنطاكية يحمي ذراهـــــا وقد دانت لسطوتك البـــــــلاد

وأذعنت الممالك واستجـابت ملبية لدعوتك العبـــــــــاد

وفت السيوف الحداد وعدها بقتل المشركين الفرنج الذين حاربوا في هذه المعركة بضمانها ، وتقضي الرماح مسؤوليتها كذلك ، تدرك هذه السيوف اعتداءات الفرنج من كل ناحية فيجيبهم فوارس جلاد من المسلمين بغزائمهم بدم بارد ، يغشى في حومة القتال ملك عظيم الهمة مع رعيته ، ويشد بيده القوي مفترس الفرنج ، أهم يظنون نار الحرب خمدت ؟ وفي يد نور الدين العود الأعلى الذي يقتدح به نار الحرب ، ثم يعبر عن الخيول الحربية ، فكان اهتمامه بها ينبع من خلال أهميتها في الحروب ، وقوتها وسرعتها في الجري ، ومدى تحملها للتعب والإرهاق في ساحات المعارك ، فخيول المسلمين في سرعة انقضاضها على الصليبيين كالصقور ، حيث إن الصقور لا تقوم بعملية الصيد والقنص إلا وهي متحركة ، وتنبع جمالية هذه الصورة بتأكيده في عرضها ، على أن هؤلاء الفرسان لا ينقضون في المعركة إلا على الأبطال ، وهنا أحسن الشاعر في هذا التصوير حيث جعل هذه الخيول في سرعتها وقدرة فرسانها أكثر قوة وسرعة

وجرأة من الصقور الجارحة ، حيث إن الصقور لا تصطاد من الفرائس إلا التي هي أضعف منها ، في حين لا يصطاد الفارس إلا الأبطال الأقوياء ، إذ لا فخر عندهم في قتل الضعفاء من الجنود واصطيادهم .

ويستعمل ابن القيسراني المقابلة في وصف جيش نورالدين زنكي ، ويقول : إذا أخفوا مكيدتهم في أعماق قلوبهم أخافوا أخيرا ، وكذلك إذا أبدوا عداوتهم أبادوا ، وأنت حميت هذه الدولة بنصرتك ، ولماذا يخشى هذا البلد وأنت العماد ؟ إذا تلت القوافي في هذه المعركة مثل قافية معركة إنب فإذا يكون سنادا (السناد : كل عيب في القافية قبل الروي) ووقع هذا النصر بأقلام العوالي ولها أيضا مدادا ، وطالت رؤوس الأعلاج (الأعلاج : الرجل الضخم القوي من كفار العجم وبعضهم يطلقه على الكافر عموما) خصبا ، فإذا أخذ السلطان السيف وحصده تماما ، أحطت َفي فناء الحرب وقتلئهم مع الصبر ، ليس هناك طعن ولا طراد ، ثم يستخدم ابن القيسراني السخرية لبيان الحالة في ساحة القتال بعد اتمام الحرب ، وصوّر رأس الإبرنز وهو على رأس الرمح ، فرأس الإبرنز بحاجة إلى وساد ، وليس أفضل من سنان الرمح وسادا له ، وتبدو السخرية منه حينما صوّره ترجل عن ظهر فرسه وأركبوه فرسا جديدة وهي عصا الرمح ، فأضحى في محله الجديد غضيض المقلتين مع أنه غير نعسان ، ياملك سِر إلى الأمام وخذ بهذه الدنيا بحذافيرها ، ليس أمامك جبال ولا وهاد يعني الأرض المنخفضة ، وزُر يامدوح بجيشك مثوى الأحباء ، فمن يذوذ عن باب رجل مسلم ؟ وليس في باب الفارس غير الثكلى التي تبكي على فقد ولدها ، وهناك كثير من الحداد (الحداد : ثياب مأتم السود) ، تحاول أنطاكية أن تحمي مكان الملجأ فيها ، وقد دانت أمام قدرتك البلاد كلها ، وأذعن أمامك الملوك كلهم ، لبّى العباد لدعوتك .

• انتصاره على جوسلين ، سنة 545 هـ :

وفي سنة 545 هـ جمع نور الدين عسكره وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي ، وهي شمال حلب ، وعزم على محاصرتها ، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، وكانت بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين ، وإما قتلا وإما أسرا ، خرج جوسلين في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى ، فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة ، فعاجله التركمان ، فركب فرسه ليقاتلهم فاخذوا أسيرا ، وكان أسره من أعظم الفتوح ، فملك نور الدين القلاع التي كانت في حوزته ، ومنها : تل باشر ، عزاز ، عين تاب ، كفر لا شا ، مرعش . فخلّد ابن القيسراني هذا النصر العظيم بقصيدته ، فقال :

دعا ما دعا من غره النهي والأمـر ... فما الملك إلا ما حباك به القهـــر

ومن ثنت الدنيا إليه عنانهـــــــا ... تصرف فيما شاء عن إذنه الدهـر

ومن راهن الأقدارفي صهوة العلى ... فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر

إذا الجد أمسى دون غايته المنـــى ... فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثــر

ولم لا يلي أسني الممالك مـــالك زعيم بجيش من طلائعه النصـــر

ليهن دمشقا أن كرسي ملكهـــا حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر

وأنك نور الدين مذ زرت أرضها سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر

خطبت فلم يحجبك عنها وليهـــا وخطب العلى بالسيف ما دونه ستر

جلاها لك الإقبال حورية السنـــا عليها من الفردوس أردية خضـــر

خلوب أكنت من هواك محبـــة نمت فانتمت جهرا وسرالهوى جهر

فسقت إليها الأمن والعدل نحلـــة فأمست ولا اسر تخاف ولا إصـــر

فإن صافحت يمناك منبعد هجرها فأحلى التلاقي ما تقدمه هجـــــر

وهل هي إلا كالحصان تمنعـت دلالا وإن عز الحيا وغلا المـــهر

ولكن إذا ما قستها بصداقهـــا فليس له قدروليس لها قـــــدر

هي الثغر أمسى بالكراديس عابسا وأصبح عن بان الفراديس يفتـــر

على أنها لو لم تجبك إنابـــة لأرهقها من باسك الخوف والذعـر

فإما وقفت الخيل ناقعة الصـــدى على بردى من فوقها الورق النضر

فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى وأصدرتها والبيض من علق حمر

وجللتها نقعا أضاع شياتهـــا فلا شهبها شهب ولا شقرها شقـــر

علا النهر لما كاثر القصب القنـــا مكاثرة في كل نحر لها نحـــــر

وقد شرقت أجرافه بدم العـــدى إلى أن جرى العاصي وضحضاحه غمر

صدعتهم صدع الزجاجة لا يـــد لجابرها ما كل كسر له جبـــــر

فلا ينتحل من بعدها الفخر دائـل فمن بارز الإبرنز كان له الفخـــر

ومن بز أنطاكية من مليكهـــا أطاعته ألحاظ المؤللة الخـــــزر

أخو الليث لولا غدرة نزعت بـه إلى الذئب إن الذئب شيمته الغـــدر

أتى راسه ركضا وغودر شلـــوه وليس سوى عافي النسور له قبـــر

وقد كان في استبقائه لك منـــــة هي الفتك لو لم تغضب البيض والسمر

كما أهدت الأقدار للقمص أسـره وأسعد قرن من حواه لك الأســـر

طغى وبغى علوا على غلوائــه فأوبقه الكفران عداوة والكفـــــر

وألقت بأيديها إليك حصونـــه ولو لم تجب طوعا لجاء بها القسر

وأمست عزازكا سمها بك عـزة تشق على النسرين لو أنها الوكــر

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجـــة فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقــر

كأني بهذا العزم لا فلّ حـــــــده وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمـر

وقد أصبح البيت المقدس طاهـرا وليس سوى جاري الدماء له طهـر

وقد أدت البيض الحداد قروضهـا فلا عهدة في عنق سيف ولا نــذر

وصلت بمعراج النبي صـــوارم مساجدها شفع وساجدها وتـــــر

وإن يتيمم أثكلت كل بلـــــــدة بصاحبها حتى تخوفك البـــــدر

إذا سار نور الدين في عزما تــه فقول لليل الإفك قد طلع الفجـــر

همام مني هزة موتاضي سيوفـه لها ذكرا زفت له قلعة بكـــــر

ولولم يسر في عسكر من جنـوده لكان له من نفسه عسكر مجــر

ما يك سمت شم المنابر باسمـــه كما زهيت تيها به الأنجم الزهـر

فياكعبة مازال في عرصاتهـــــا مواسم حج لا يروعها النفـــــر

خلعت على الأيام من حلل العلــى ملابس من أعلامها الحمد والشكر

وتوجت ثغر الشام منك جلالـــة تمنت لها بغداد لو أنها ثغـــــر

فلا تفتخر مصر علينا بنيلـــهـا فيمناك نيل كل مصر بها مصــر

رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله ويا طالما أمسى ومسلكه وعـــر

وأطمعت في الإفرنج من كـــــان باسه ، تخوف أن يعتاده منهم فكـر

وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ولولاك لم يهجم على كافركفـــر

ومن يدعي فيقتلك الشرك شركـــة إذا لم يكن عند القوافي له ذكـــر

هي القانتات الحافظات فروجهـــا فشاهدها عدل وروائقها سحـــر

ولو لم يكن في فضلها وكمالهـــا سوى أنها من بعد عمرالفتى عمر

عند بالغ الحزن دعى ما دعى من غرّه بالأمر والنهى في هذه المعركة لإظهار غمه ووصبه ونصبه ، ولكن نور الدين حصل على المُلك من أيدي الفرنج قهرا ، إذا جاء إلى الرجل زحارف

الدنيا يصرفها عنه الدهر فيما شاء بعضها أو كلها ، ومن سابق الأقدار جالسا على صهوة العلى فلن يقدر أن يدرك الشعرى ولا الشعر ، ويقول الشاعر : إذا أصبح غاية الرجل في المنى فقط ليس في الجد ، فماذايفعل به النظم والنثر؟ يعني كيف يكون أقوال الناس عنه ؟ ولم لا يلي رماح الممالك رمح الملك ؟ وهو زعيم الجيش ، ومن أهم طلائعه النصر ، حاول جوسلين أن يهن دمشق ، ولكن كرسي المُلك دنى عليك ، وضاق صدر جوسلين بهمه ، منذ زرتَ أرض العدوّ سمت شهرتك وتأثيرك على الناس حتى انحط عن عرشها الفرنج ، واجهتَ العدوّ فلم يمنعك ولي الأرض عنها ، وخطبتَ مكانته العالية بسيفك بلا ستر حتى انحط أمامك ، جلّى أمامك إقبال لمع السنا من الفردوس بأردية خضراء ، هل المحبة من هواك ؟ نمت هذه المحبة جهرا وسرالهوى جهرا ، وسقت هذه البلاد من الأمن والعدل نحلة ، فإذا لا يخاف أحد حتى أسرى أي نوع من الإيذاء ولا إصر ، صافحت يمناك هذه البلدان بعد هجرها من قبل ، هذه الملاقات أحلى من العسل ، وكانت هذه الفتوحات كالحصان حارب وقارا ، ولكن إذا وشى بعض الوشاء والنمام لفضح مكانته المرموقة فليس له قدر ولا ينصره قدرته في وقت واحد ، إذا لم تجيبوا دعوتك للرجوع إلى عنده لأرهقهم بأسك وخوفهم منك ،

ثم يرسم الشاعر صورة الخيل في حومة الوغى وساحات البطولة ، وقد تلطّخت اجسادها بالدم فتغير لونها ، فيصور هذه الخيول وقد شربت وارتّوت من نهر ' بردى ' تحت الأشجار ذوات الاوراق النضرة ، ثم يتابع تصويرها في صورة حركية ، وقد خاضت غمار الحرب وعادت ، وقد غطى دم الأعداء جسدها ، فاصطّبغت باللون الأحمر القاني ، ثم يصور الخيول الشبهاء والشقراء وقد علاها غبار المعركة الكثيف ، فأصبح من الصعوبة تمييز ألوانها الحقيقة ، ازداد الفيضان في نهرالدم بقناة المسلمين التي يُطعن بها على صدور الأعداء ، استعمل الشاعر هناك مجازا ، بقوله علا النهر ، باعتبار مائه والمكان الذي على فيه ماء النهر ، وقد شرقت اجراف النهر بدم الأعداء ، وجريُ هذا النهر وضحضاحه غمر، (الضحضاح : الماء اليسير أو القريب القعر) ، هنا جرى العاصي فيه مجاز عقلي لان ، نسبة الجري إلى النهر مجاز باعتبار الإضافة إلى المكان ، ويشبه ابن القيسراني جنود الأعداء مشتتين جراء هزيمتهم ، بالزجاج المتصدع ، الذي يصعب جبره ، في إشارة من الشاعر إلى ذل الأعداء وهوانهم ، وصعوبة تجمعهم من جديد .

ويستحضر ابن القيسراني الذئب ليظهر فيها صفات الغدر والخديعة التي يتصف بها أعداؤه الفرنجية ، فقد شبه قائدهم بالليث ، ثم عدل عنه وجعله ذئبا لغدره ، واستحضر الشاعر الضعيف من الطيور والحيوانات ليرسم لنا صورة واضحة عن نتيجة المعارك مع الصليبيين وكثرة القتلى بينهم ، بحيث يأكل من جثثهم الضعيف من الحيوانات دون خوف من المنافسة عليها لوفرتها ، أتى الطيور رأس الأعداء وتركوا بعض الاعضاء في ساحة الحرب ، ليس لهم قبر إلا أحشاء الطيور ، وفي أستبقاء أجسادهم لك منة لأنها إذا لم يكن هناك السيوف والرماح يفتك الطيور أجسادهم .

وفي السطر التالي يوظف ابن القيسراني الطباق في تصوير انتصار نور الدين على عدوه ، وإبرازه قائدا مميزا ، وجعل للإستعارة دورا في توضيحها ، فجعل للحصّون يدا تسلّم ما فيها لممدوح الشاعر ، علما أنها لو لم تسلّم طوعا ، لا ستسلمت رغما عنها ، وقد ساهم الطباق بين لفظتي 'طوعا ' و ' قسرا ' في توضيح معنى الصورة وجلاء غموضها ، وبخاصة إذا جاء به

الشاعر بيُسر و بساطة دون تكلف وتعقيد ، بقوله : *والقت بأيديها إليك حصونه* ...الخ . ولذلك سِر أيها الملك العظيم إلى الأمام واملأ الدنيا ضياءا وبهجة في الآفاق الداجي بسناك ، وكنت كالسيف الذي أفل حده أمام عزمك ، وأنت في أقصى غاية العزم وقد قضيت الأمر ، وقد أصبح البيت المقدس طاهرا بفتوحك ، وليس طهارة إلا من أفاض دمه في هذا الحرب الضروس ، وقد أدت السيوف قرضها يعني دَينها بكثير من القتل ، وليس في عنق السيف عهدة للاعداء ولا نذر ان يقتلهم ، ولكنهم بدأوا القتال والاحتلال إلى أرض المسلمين ، صلت السيوف القاطع بمعراج النبي (صلعم) ، وكانت المساجد شفع والساجد وتر، ولما أضاع ساحل البحر ملك من الفرنج ملكها ملك من العرب ، هذا هو ليس أمر عجيب ، سللت سيوف الأعداء التي أثكلت كل البلدان من أيدي المسلمين وصاحبها حتى تخوفك البدر ، وإذا سار نور الدين في قدرة عزيمته فيطلع شمس الفجر من ظلام الليل الخائف ، هو ذو همة عظيمة إذا هزّ حداد سيفه نحو الأعداء يرجع إليه قلعة بكر سريعة ، ثم يصوّره في المعارك فردا يقوم مقام الجيش في شجاعته ،

ويخاطب الشاعر بعد ذلك الكعبة الشريفة قائلا مازال في فناءها مواسم الحج لا يروعها النفر، ومنحت ياملك للأيام من ثوب العلى من أعلامها الحمد والشكر ، حصلت ثغر الشام على الجلالة منك ، وتمنت البغداد لو أنها ثغر ، ويماثل ابن القيسراني عطاء ممدوحه نور الدين بعطايا نهر النيل وخيره ، ولا تفتخر مصر على نيلها لعمرك نيل كل مصر بها مصر ، رد نور الدين زنكي سبيل الجهاد الصعب سهلا وكان له من قبل مشقة كبيرة ، وأطمعتَ للفرنج عذب الخسران وكانوا أشداء ، وهم يخافون اليوم من ان يعتاد إليهم فكر هذه الأيام ، واقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ، ويشبه الشاعر الخيول للجرد التي يهجمن على الزرع ، ولولاك لم يهجم على كافر كفر يعني ولو لم يكن هناك لم يخسر الكفار الذين يهجمون على المسلمين خسرانا عظيما بعدوانهم في هذه المعركة .

- **مدحه على الموافقة بين مجير الدين ونورالدين في الدمشق سنة 546 هـ :-**

وفي عاشر المحرم من سنة 546 هـ نزلت أوائل عسكر نورالدين قريبا من دمشق ، فالتقوا فريق من جنود جيش دمشق وحدثت بينهم مناوشات ، وطلبوهم ان يشاركوا في جيش المسلمين معه لإصلاح أمر المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلاص من في أيديهم من الأسارى ، ولكنهم رفضوا ، واستمرت المناوشات حتى صفر، ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لانجاد أهل دمشق ، فضاقت صدور اهل الصلاح ، وزاد أنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة ، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحمة ولا محاربة ، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر، ونورالدين في هذه الحال لا يأذن لأحد من عسكره في التسرع إلى قتال أحد من المسلمين ، وكانوا ، يعني اهل البلد ، يحملهم الجهل والغرور، على التسرع والظهور ، ولا يعودن إلى خاسرني مغلولين ، وأقام على هذه الصورة ، ثم رحل نورالدين إلى ناحية الأعوج ، وبعد رحيله وصل الفرنج واجتمعوا بمجير الدين ومؤيد الدين وقرروا قصد بصرى ، وضايقوها إلا أن صمود واليها اضطرهم إلى الانكفاء عنها مخذولين ، وعاد عسكر الفرنج إلى اعماله في ربيع الأول ، وعاد نور الدين فنزل قرب دمشق واستمر بالزحف وترددت مراسلات انتهت بصلح وقبول الشروط المقترحة من الجهتين فرحل عن دمشق في منتصف ربيع الآخر [1] ، وفي

[1] ذيل تاريخ دمشق : 312 -316 ، مرآة الزمان : ج 8 ص : 209 – 211

رجب توجه مجير الدين إلى حلب في خواصه ودخل على نور الدين صاحبها وأكرمه وبالغ في الفعل الجميل في حقه وقرر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، وانكفأ مجير الدين مسرورا ووصل دمشق ودخلها في شعبان .

وقد سر ابن القيسراني بهذا اللقاء والوفاق بين نورالدين ومجيره ، فاتفاقهما يعني وحدة صف قد تكون خطوة أولى في تحقيق أمل يراود خيال الشيخ دائما ، وهو الأمل في تحرير البلاد من الفرنج الغاصبين ، فقال يهنئ نورالدين بطاعة دمشق له وانفاذها غر سلاطينها لتقديم فروض الولاء واظهار مشاعر الود الذي تكنه له : هذه هي القصيدة :

وفت لك الدنيا بميعادهـــــا باذلة افلاذ اكبادهـــــــا

وأوفدت غر سلاطينهـــــا عليك في همة أنجادهـــــا

تبغي سناءَ اقصدت قصـــده طائعة طاعة أنجادهـــــا

خاضعة تعتد أعمارهـــــا يوم التلاقي يوم ميلادهـا

شامت دمشق بك برق العلا فأرسلت أصدق روادهـــا

رأتك نور الدين نار الهـدى قد أشرق الأفق بإيقادهـــا

فيممت منك حيا مزلـــــة بيض الأيادي ورد ورادها

فأسال مجير الدين عن جيرة أوردها محمود أيرادهـــا

تبوأت من عزها قبـــــــة سمر القنا أطناب أوتادهـا

تنافس الناس على دولـــــة فت بها أعين حسادهـــــا

يغدو المعادي كالموالي لها فوالها إن شئت أو عادهـــا

يا ملكا تزهى بأسمائـــــه منابر تسمو بأعوادهـــــا

وتأخذ الاسماء أوصافـــه عن جميع الدنيا وأعيادهـــا

كم للمعالي فيك من رغبـة تفنى الأماني دون تعدادهـا

لك المساعي الغر ياجامعا من طرفيها بين أضدادهـــا

يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زهادهـــا

فأنت نسكا غيث ابدالهـــــا وأنت فتك ليث أسادهـــــا

في أمة أنت حمى دينهـــــا حينا وحينا شمس عُبّدهـــا

يطوي بك العمر إلى غايـة حسبك تقوى الله من زادهـا

هذا وكم من سنة بدعــة أعدمتها من بعد إيجادهـــــا

مآثر لو عدمت راويــا تكفل النظم بإسنادهـــــــــا

يخاطب الشاعر نورالدين محمود زنكي قائلا : وفت لك الدنيا ميعادها التي وعدتها من قبل بنصرك التمام على الأعداء ، وقد بذلت الدنيا لها أفلاذ أكبادها ، فقوله ' غُرّ' كناية عن الشرف والسيادة وبياض الوجه ، وقد اراد الشاعر في هذه الكناية إظهار مكانة ممدوحه نورالدين محمود زنكي ، حيث بعثت إليه دمشق أشرف رجالها لمقابلته وعقد صلح معه ، ولا شك أن هذه الكناية تؤكد بإيجاز بلاغي مكانة نورالدين ، وتبرزه بطلا لإسهامه في حقن دماء المسلمين ، وقبول الصلح مع زعماء دمشق وسادتها ، وتبغي هذه الدنيا سناءَ ، أقصدت يامدوح قصده ؟ مع الطاعة مثل الجنود ، اعتدت الدنيا أيام حياتها مع التواضع يوم لقيت الدنيا هذا الرجل العظيم يعني يوم ميلادها ، وتنظر دمشق أين تمطر وتبرق من فضلك الكريم ولفهمها أرسلت دمشق اصدق رُؤّادها ، قد رأت الدنيا فيك نار الهدى فأشرق الأفق بنورك الجليّ ، فاسأل مجير الدين عن الملجأ الذي يُلجأ فيه الناس ، وهذا هو الملجأ الذي أورده نورالدين محمود زنكي ، وتبوّأت قبة عزتها هناك بسمر القنا واطناب الأوطاد ، تنافس الناس في أمر هذا البلد وهلك اعين هؤلاء الحساد ، ياملك هذا البلد تزهي باسمك ، ومنابرها تسمو بالاعواد ، ويسمع هذه الدنيا أوصاف دولتك ، وكم من الملوك لهم رغبة للحصول على مُلك دمشق ولكنهم عادوا خائبين ، ياجامع كل الخيرات لك مساعي الغر من طرفيها بين اضدادها ، ويغشى القتال فرسانها ، وهناك المشاركة في الحر،هذا هو من اشد أنواع الزهد ، ليس الزهد ترك الدنيا فقط ، ثم يوظف ابن القيسراني الشمس بدوام إشراقها ودفئها ، لإبراز صفة التقى والورع الداعمين الذين يتمتع بهما نورالدين ، فصوره بطلا في الحرب ، وبطلا في العبادة ، لا ينقطع عنها ، ويسير عمرك إلى غايته ، ولكنه ليس عليك شيئ للخوف ، لأن لك زاد التقوى طوال رحلاتك إلى الله ،

هنا يختم مساهمته الأدبية المباشرة في هذه المقاومة ، وهناك كثير من القصائد والأشعار التي أُلفت حول هذا الموضوع غير مباشرة ، ونحن لا نريد الدراسة عنها هناك ، ممكن أن تكون هذه القصائد والأشعار متعلقة حول هذا الموضوع ، ولكن الدراسة عنها كلها يصلنا إلى مقالة كبيرة تُعد على مئات من الصفحات ، هذه هي غير مناسبة لنا مثل هذا النوع من الدراسة لماقبل الدكتورة ، ولكن وجدت من الضروري ان اذكر مدحه *الأمير مجد الدين أبو سلامة مرشد بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ* ، هو من بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وهو والد أسامة بن منقذ ، استخلفه أخوه ابو المرهف نصربن علي لما حضره الموت فرفض وقال : "والله لا وليتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها " فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي ، وكان مشغوف بالصيد يرى فيه نزهته ، فلم يكن له شغل سوى الحرب وجهاد الفرنج ونسخ كتاب الله ، وتوفي سنة 531 هـ . وقد مدحه ابن القيسراني بقصيدته :

إذا ما تأملت القوام المهفهفـــــا تأملت سيفا بين جفنية مرهفـــا

بليت بقاسي القلب لا عطف عنده أما شيمة للغصن أن يتعطفـــــا

وذي صلف يغريه بالتيه صمتــه إذا سمته رد السلام تكلفـــــــا

وطرف تجلى عن سقامي سقامه فهلا شفى من بات منه على شفا

احب اقتضاء الوصل من كل هاجر وإن مطل الدين الغريم وسوفـا

واقنع من وعد الحبيب بخلفـــــه ومن كلفي أن أسأل الوعد مخلفا

وما زلت موقوف الغرام على هوى يجدد لي م عهد ظلمياء ما عفـا

اخا كلف لا يرهب الليل زائـــــرا إذا ضل نهج الحي عنه تعسفـا

سقى الله أيام التهافت في الصبـــا جنى كل جنان الأصائل أوطفـا

ليالي أضللت الرقيب مواقفـــــا تروحت أستجلي البنان المطرفا

أودع لبي ذاهل القلب مغرمـــــا وأودع قلبي فاترالطرف أهيفـا

تقضي الصبا إلا تذكر ما مضـى وإلا سؤالا عن زمان تسلفـــا

وإلا شباب فلل الشيب حـــــــده إذا ما هفا نحو التصابي تلهفـا

وعاد على الدهر فيما سخا بـــه فنغص ما أعطى وكدر ما صف

على أنني خلفت خلفي نوائبـــا كفاني مجد الدين منهن ما كفـى

ما قال عنه النقاد في شعره : -

اتفق معظم المؤرخين على أن ابن القيسراني من معظم الشعراء في هذا العصر ، باعتبار دوره في الحروب الصليبية وتناوله بكثير من أنواع الشعر معا بدقة ومهارة ،

قال فيه ياقوت الحموي : " كان شاعرا مجيدا وأديبا متفننا " [1]

وابن القلانسي : " كان أديبا شاعرا مترسلا فاضلا بليغ النظم مليح المعاني " [2]

وابن العماد الحنبلي : " حامل لواء الشعر في عصره " [3]

والنعيمي : " حامل لواء الشعر في زمانه " [4]

والسمعاني : " أشعر أهل الشام " [5]

وابن خلكان : " وكان من الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين " [6]

واليافعي : " الشاعر المشهور ومن الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين " [7]

وأبو شامة : " وكان في دولته (دولة نور الدين) شاعرا زمانه أبوعبد الله بن محمد بن نصربن صغير ، وأبوالحسن أحمد بن منير ولهما فيه أشعار فائقة " [8]

وعماد الكاتب : " فكأنهما (ابن القيسراني وابن منير)جرير العصر وفرزدقه ، وهما مطلع النظم ومشرقه ، وشى في الشام عرفهما " [9]

---

[1] معجم الأدباء : ج 19 ص : 64 .
[2] ذيل تاريخ دمشق : ص : 322
[3] شذرات الذهب : ج 4 ص : 150
[4] الدارس في تاريخ المدارس : ج 2 ص 388
[5] الأنساب : ص 468
[6] وفيات الأعيان : ج 4 ص 82
[7] مرآة الجنان : ج 3 ص 287
[8] الروضتين : ج 1 ص 44
[9] الخريدة : ج 1 ص 79

الخاتمة

بعد هذه الدراسة عن ابن القيسراني وشعره ومساهمته الأدبية في مقاومة الحروب الصليبية يمكن تسجيل النتائج التالية :

- بادئ ذي بدء نفهم من هذه الدراسة صورة حالة السياسية في ذلك العصر الذي عاش فيه ابن القيسراني لا سيما في منطقتي الشام والموصل في الفترة التي سبقت بداية الحملة الصليبية الأولى ، وكانت هذه الفترة مضطربة سياسية يعود اضطرابها إلى عوامل مختلفة ، منها : اشتداد النزاع بين الأخوين دقاق ورضوان من أمراء السلاجقة ، من اجل حرص كل منهما على ان ينفرد بحكم سوريا ، ونشبت فعل الحرب بين الأخوين بينما كان الصليبيون في طريقهم إلى الشام ، وما حدث من اختلاف الديني والسياسي بين الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في القاهرة ، والخطير الخارجي ممثلا في الصليبيين الذين اجتاحوا الشام وأخذوا الكثير من مدنه وحصونه وأسسوا فيها ممالك وإمارات ، والخطر الداخلي ممثلا في الباطنية الذين كان لهم أثر كبير في أحداث البلبلة بما قاموا به من اغتيالات شملت عددا من رجالات البلاد بما أضروا به بتعاونهم مع الفرنج واضطرار الأمراء إلى توجيه بعض جهدهم إلى حربهم .

- ودور قطبي الدولة الأتابكة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من أعمال كانت بداية النهاية للفتح الفرنجي.

- صورة واضحة للحياة الإجتماعية وحالاتهم الثقافية وانغماسهم في الترف في أشعاره الثغريات ، وصُورا عديدة من جوانب حياتهم كأعيادهم الدينية ، وعاداتهم وتقاليدهم التي تقيد سلوكهم ، واحتفالهم بالأعياد، ومواكبهم ، وعباداتهم ، وكنائسهم ، ومجالس لهوهم ، مما يدل على معرفة الشاعر لبعض جوانب الحياة عند الصليبيين .

- صورة دقيقة عن حياة الشاعر ابن القيسراني في الباب الثاني ، حققت فيه اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ، وتتبعت مراحل حياته منذ مولده في عكا ، ونشأته في قيسارية إلى رحلاته لدمشق حيث طلب على ابن الخياط الشاعر وتخرج به ، ورحلته إلى العراق واتصاله بسديد الدولة ابن الأنباري كاتب الديوان العزيز ، وعودته إلى دمشق وخروجه إلى حلب أثر تنكر متولي دمشق له ، وحياته في حلب واتصاله بأمراء ووزراء وقضاة الدولة الأتابكة ، ثم دخوله أنطاكية وما نتج عن تلك الرحلة من الشعر ، ثم اسهبت في تصوير حياته في طل نور الدين ، واختلافاته بالشاعر ابن منير الطرابلسي ، وعودته إلى دمشق في أواخر حياته ، وموته فيها .

- ويصورالباب الثالث ثقافته وأشعاره المعروفة بالثغريات و شخصيته الشعرية ومصادر الصورة التراثية في أشعاره ، فقد كان للحوادث التاريخية ومعاني الدينية ومعاني الشعراء السابقين وصورهم الفنية دور مهم في تشكيل صوره ، وأتيح له بواسطتها نقل أحاسيسه الوجدانية وتجربته الفنية إلى الجمهور المتلقي ، عبر عملية استحضار انتقائية مركزة لبعض الصور الفنية التي أسهمت في إثراء ثقافته وصقل معرفته وشاعريته

- استعمال كثيرا من الموروث التاريخي والأدبي والديني طوال أشعاره في وصف المعارك والعزل والتشبيب والخمريات ووصف الطبيعة ووصف النساء المسيحية المتعبدات تدل بوضوح على ثقافة الشاعر وسعة اطلاعه ، فقد كان للحوادث التاريخية والمعاني الدينية ومعاني الشعراء السابقين وصورهم الفنية دور مهم في تشكيل صوره ، وأتيح له بواسطتها نقل أحاسيسه الوجدانية وتجربته الفنية إلى الجمهور المتلقي ، عبر عملية استحضار انتقائية مركّزة لبعض الصور الفنية التي أسهمت في إثراء ثقافته وصقل معرفته وشاعريته ، وقد برز استحضاره بجلاء لصور سابقيه ، وبخاصة صور أبي نواس في الخمر والغزل ، وصور أبي تمام والمتنبي في شعر الحرب .

- نفهم من تناول الشاعر فتوحات المسلمين ومدحهم الأمراء والوزراء مكانته المرموقة عندهم ، حصل الشاعر بهذه التدخلات من قبول وافر ، وقد مدح ليس فقط الأمراء بل الوزاء أيضا مثل جمال الدين وزير الدولة الأتابكة بالموصل ، والقضاة مثل كمال الدين الشهرزوري وغيرهم على الرغم من غير مشاركته المباشرة في الحروب ضد الصليبيين .

- وصورة واضحة عن شخصيته الشعرية بين الشعراء البارزين في عصره ، يسير علينا تعيين هذه الشخصية من المقارنة بينه وبين ابن الخياط الذي كان أستاذا له ، وبينه وبين أسامة بن منقذ وكان ممدوحا له ، وبينه وبين العرقلة ذي الشخصية الطريفة والشعرالحاد ، وبينه وبين ابن منير الطرابلسي رصيفه ومعارضه ومنافسه ، نفهم من ذلك بأن شخصية الشاعر ابن القيسراني الشعرية تكاد تكون هادئة مستوية لا تعقيد فيها ، شخصية متأثرة بثقافة إسلامية في هذا العصر المملوء بالاضطرابات وبالاحتلال الفرنج .

وبهذه كلها يعتبر ابن القيسراني من الشعراء الذين لعبوا دورا بارزا في تغيير جريان التاريخ إلى وجهة أخرى ، وقد شارك بمواهبه الأدبية في مقاومة طال ضررها قرنين تماما ، فهي الحروب الصليبية .

المصادر والمراجع :-

1. **خريدة القصروجريدة العصر** : للعماد الأصفهاني الكاتب . قسم شعراء الشام ، تحقيق الدكتور شكري فيصل ، الطبعة الأولى بالمطبعة الهاشمية ، بدمشق ، ونشره مجمع اللغة العربية ، بدمشق ، سنة 1388 هجرة ، 1968 م .

2 . **الروضتين في أخبار الدولتين - النورية والصلاحية** : لشهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسمعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة ، تحقيق : إبراهيم الزيبق ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، سنة 1997 م .

3 . **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** : لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، سنة 1413 هجرة 1992 م .

4 . **وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان** : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الناشر دار الثقافة ، بيروت . سنة 1975 م

5 . **ذيل تاريخ دمشق** : لابي يعلى حمزة بن القلانسي ، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين ، سنة 1908 م .

6 . **الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل** : لمجير الدين الحنبلي ، نشر مكتبة المحتسب في عمان ، سنة 1973 م .

7. **البداية والنهاية** : لأبي الفداء الحافظ ابن كثير ، نشر مكبتة النصر بالرياض ، ومكتبة المعارف في بيروت ، سنة 1966 م .

8 . **الكامل في التاريخ** : لعزّ الدين بن الأثير ، نشر دار صادر ودار بيروت في بيروت سنة 1966 م .

9 . **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** : لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ، الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة 1412 هجرة 1992 م .

10 . **الدارس في تاريخ المدارس** : عبد القادر بن محمد النعيمي ، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين ، جزءان ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمبة ، بيروت ، لبنان ، سنة 1990 م .

11 . **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء** : محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي ، منشورات دار القلم العربي بحلب ، سوريا . الطبعة الأولى سنة 1341 هجرة ، 1923 م .

12 . **الحروب الصليبية** : Barker Ernest ، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . سنة 1967 م .

13 . **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام** : للدكتور أحمد أحمد بدوي ، الطبعة الثانية ، دار النهضة بمصرللطباع والنشر ، الفجالة - القاهرة . " بدون تاريخ " .

14 . **الإستيطان الصليبي في فلسطين – تاريخ الحملة إلى البيت المقدس 1095 – 1127 م :** تأليف فوشيه الشارتري ، ترجمة ودراسة وتعليق الدكتور قاسم عبده قاسم ، طبعة الشروق الأولى 1422 هجرة 2001 م ، دار الشروق ، شارع سيبويه ، القاهرة ، مصر .

15 . **صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين** : نشر دار الرسالة في بيروت ، الطبعة الأولى . سنة 1394 هجرة .

16 . **رحلة ابن جبير- تذكرة بأخبارعن إتفاقات الأسفار** : أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير ، دار صادر بيروت . سنة 1955 م .

17 . **فتوح الشام** : لأبي عبد الله بن عمر الواقدي ، دار الجيل ، للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان . " بدون تاريخ " .

18 . **أثر المدينة الإسلامية في الحضارة العربية** : للدكتور مختار القاضي ، طبع الأهرام ، ونشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، في مصر ، سنة 1972 م .

19 . **مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني** : تأليف سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعي ، الطبعة الأولى بمطبعة دار الهناء ، نشر دار النهضة المصرية ، سنة 1970 م .

20 . **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دارالفكر - بيروت ، الطبعة الخامسة 1393 هجرة 1973 م .

21 . **رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى** : للدكتور معروف عباس نصر الله ، دار النهضة العربية ، للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، سنة 1416 هجرة 1995 م .

22 . **النوادرالسلطانية والمحاسن اليوسفية - سيرة صلاح الدين** : لبهاء الدين بن شداد ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ، نشر المؤسسة المصريةالعامة للتأليف والنشر ، بمصر ، سنة 1964 م .

23 . **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** : لمحمد العروسي المطوي ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، سنة 1982 م .

24 . **قصة الحضارة** : تأليف ول ديورانت ، وترجمة محمد بدران ، طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ونشرته جامعة دول العربية ، سنة 1957 م .

25 . **الحروب الصليبية - كما رآها العرب** : لأمين معلوف ، ترجمة : د . عفيف دمشقية ، دار الفارابي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى : 1989 م ، والطبعة الثانية : 1998 م .

26 . **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب** : للدكتو عزيز سوريال عطية ، ترجمة : الدكتورفليب صابر سيف ، دار الثقافة ، القاهرة ، بمصر . " بدون تاريخ " .

27 . **العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية** : للدكتور زكي النقاش ، طبع ونشر دار الكتاب اللبناني ، سنة 1958 م .

28 . **أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية** : عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي ، ص . ب . 3169. الرياض 11471 ، مملكة العربية السعودية ، سنة 1994م .

29 . **الأيوبيون والممالك في مصر والشام** : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، سنة 1996 م .

30 . **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصرالمملوكي** : للدكتور فايد حماد محمد عاشور ، الطبعة الأولى ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، سنة 1995 م .

31 . **الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية - التاريخ السياسي** : للدكتور عبد المنعم ماجد ، الطبع والنشر دار الفكر العربي ، مدينة نصر ، القاهرة ، سنة 1997 م .

32 . **الدولة الأيوبية والصليبيون** : للدكتورة أسمت غنيم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، سنة 1990 م .

33 . **السلوك لمعرفة دول الملوك** : تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي ، تحقيق محمد عبد القدر عطا ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . الطبعة الأولى 1997 م .

34 . **الصليبيون في الشرق** : ميخائيل زابوروف ، ترجمة من اللغة الروسية إلى العربية إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، الإتحاد السوفيتي ، سنة 1986 م . 7-000748 - 01-5 ISBN

35 . **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية** : (50 جزء) الأستاذ الدكتور سهيل زكّار ، دار الفكر للطباعة والنشر ، دمشق ، سنة 1995 م .

36 . **إمارة الرها الصليبية** : للدكتورة علية عبد السميع الجيزوري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2001 م .

37 . **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدى للصليبيين** : للدكتور محمود محمد الحويري ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، سنة 1992 م .

38 . **تاريخ الحروب الصليبية** : تأليف ستيفن رنسيمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، الطبعة الأولى بمطبعة النحوي ، في بيروت ، ونشر دار الثقافة ، سنة 1967 م .

39 **. تاريخ اليعقوبي** : مؤلف اليعقوبي ، موقع الوراق ، http: //www .alwarraq .com (الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع)

40 . **صلاح الدين والصليبيون - تاريخ الدولة الأيوبية** : للدتوراحمد الشامي ، الطبعة الألى ، مكتبة النهضة العربية ، 32 - شارع عبد الخالق ثروت ، القاهرة ، مصر ، سنة 1991 م .

41 **. ماهية الحروب الصليبية** : للدكتور قاسم عبده قاسم ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب ، الكويت ، صدرت السلسلة في يناير 1978 م ، بإشراف أحمد مشاري العدواني ،(1923 -1990 م .)

42 . **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** : لشمس الدين أبي المظفريوسف بن قزاوغلى سبط ابن الجوزي ،تحقيق ودراسة : مسفر ابن سالم الغامدي ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، مركز إحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، مملكة العربية السعودية ، سنة 1987 م . ونشر مجلس دائرة المعارف العثمانية ، بمطبعة حيدر آباد ، الدكن ، بالهند ، سنة 1952 م .

43 . **عقود الجمان في تاريخ أهل الزمان** : تأليف محمود بن أحمد المعروف بالعيني ، مكتبة أسعد أفندي بالسليمانية ، مصر . " بدون تاريخ " .

44 **. الحروب والسلام في زمن العدوان الصليبي** : للدكتور نظير حسان سعداوي ، طبع بمطبعة مكتبة النهضة العربية ، سنة 1961 م .

45 . **الحركة الصليبية** : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة الثالثة ، نشر مكتبة أنجلو المصرية ، سنة 1975 م .

46 . **نور الدين محمود** : للدكتور حسين مؤنس ، نشره الشركة العربية للطباعة والنشر ، بمصر ، سنة 1924 م .

47 . **الدولة الإسلامية تاريخها وآثارها** : تأليف عبد الحميد العبادي وآخرين ، طبع بمطابع مصر ، سنة 1954 م .

48 . **مضمار الحقائق وسر الخلائق** : لمحمد بن تقي الدين الأيوبي ، تحقيق الدكتور حسن حبشي ، الطبعة الألى ، طبع في مطبعة دار الهناء ، بمصر ، ونشره عالم الكتب . " بدون تاريخ "

49 . **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** : ياقوت الحموي ، طبع دار الفكر ، مصر ، سنة 1980 م .

50 . **سير اعلام النبلاء** : أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1990 م .

51 . **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر** : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، دار الفكر ، القاهرة ، 1988 سنة م .

52 **. شعر ابن القيسراني** : جابر صالح عادل ، الوكالة العربية للنشر والتوزيع ، الاردن ، سنة 1991 م .

53 . **جيش مصر في أيام صلاح الدين :** نظير حسان سعداوي ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة 1959 م .

54 . **صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني** : إبراهيم محمود ، دار البشير عمان ، سنة 1988 م .

55 . **الصورة الفنية في شعر ابن القيسراني - عناصرالتشكيل والإبداع** : حسام تحسين يا سين سليمان ، الأطروحة قدمت في جامعة النجاح الوطنية ، في فلسطين ، استكمالا لمتطلبات درجة المجستيرفي اللغة العربية وآدابها ، سنة 2011 م .

56 . **شعر الحرب في العصر الأيوبي** : موسى نمر إبراهيم ، دار البيرق العربي للنشروالتوزيع ، رام الله ، فلسطين ، سنة 2007 م .

57 **. الظاهر بيبرس** : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، طبع في مطبعة مصر بالقاهرة في سلسلة أعلام الغرب ، رقم 14 ، " بدون تاريخ " .

58 . **الشرق الأوسط والحروب الصليبية** : تأليف سيد باز العريني ، طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بمصر ، ونشرته دار النهضة المصرية ، سنة 1963 م .

59 **. الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها :** الشيخ محمد محمد مرسي ، مكتبة الإسكندرية ، مصر ، سنة 1972 م .

60 . **تاريخ العصر الوسيط في أوربة** : تأليف الدكتور نور الدين حاطوم ، الطبعة الاولى نشر دار الفكر الحديث في لبنان ، سنة 1967 م .

61 . **تاريخ مصر الإسلامية** : للدكتور جمال الدين الشيال ، نشر دار المعارف ، بمصر ، سنة 1967 م .

62 . **تاريخ العرب (مطول)** : تأليف فليب حتي ، الطبعة الرابعة بمطابع الغندور ، في بيروت ، سنة 1965 م .

63 . **التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية** : للدكتور أحمد شلبي ، الطبعة الأولى ، نشروطبع مكتبة النهضة المصرية ، بالقاهرة ، سنة 1967 م .

64 . **لذة النص** : بارت رولان ، الطبعة الأولى ، دار لوسوي ، باريس ، سنة 1992 م .

65 . **العبر في خبر من غبر** : لحافظ الذهبي ، تحقيق : صلاح الدين منجد ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الكويت ، سنة 1963 م .

66 . **الإعتبار** : أسامة بن منقذ ، تحقيق فليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، سنة 1930 م .

67 . **الإمارة الأرتقية في الجزيرة والشام** : للدكتور عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1980 م .

68 . **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكة بالموصل** : عزالدين بن الأثير ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ، ومكتبة المثنى ، القاهرة وبغداد ، سنة 1963 .

69 . **جمهرة الإسلام ذات النثروالنظام** : مسلم بن محمود الشيزري ، ميكروفليم رقم 9223 أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، " بدون تاريخ " .

70 . **زبدة الحلب من تاريخ حلب** : كمال الدين بن العديم الحلبي ، تحقيق : سامي الدّهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، سنة 1968 م .

71 . **الفيح القسَىَ في فتح القُسى** : تحقيق : محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة 1965 م .

72 . **أمراء دمشق في الإسلام** : لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى ، بتحقيق الدكتور صلاح الدبن المنجد ، دمشق ، سنة 1955 م .

73 . **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب** : لابن الشحنة ، بيروت ، سنة 1909 م .

74 . **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** : لموفق الدبن أبن العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي اصيبعة ، دار الفكر بيروت ، سنة 1956 م .

75 . **كتاب البديع** : لأسامة بن المنقذ ، بتحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي ، وإبراهيم الابياري ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، سنة 1961 م .

76 . **الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والصليبي** : للدكتور على محمد الصلابي ، المكتبة العصرية ، القاهرة ، ISBN 6- 733- 34-9953

77 . **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي** : للدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي ، دار الوفاء المنصورة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة 1988 م .

78 . **نور الدين محمود زنكي - شخصيته وعصره** : للدكتور علي محمد الصلابي ، دار الاندلس الجديدة ، القاهرة ، مصر ، سنة 2008 م .

79 . **نور الدين محمود - سيرة مؤمن صادق** : حسين مؤنس ، الدار السعودية للنشروالتوزيع ، جدة ، السعودية ، سنة 1408 هجرة ، 1987 م .

80 . **الحروب الصليبية المتأخرة - حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية على الإسكندرية 1365 م / 767 هجرة** : للدكتور سهير محمد إبراهيم نعينع ، الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، الهرم ، مصر ، الطبعة الأولى 2002 م .

81 . **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** : هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بن بدران ، دمشق ، سنة 1330 هجرة .

82 . **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** : للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي ، عني بتصحيحه محمد أمين الخانجي ، طبع على نفقة عبد الرحمن بدران ، سنة 1326 هجرة .

83 . **بدائع البدائه** : لعلي بن ظافر الازدي ، بهامش كتاب : شرح " شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص " لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي ، المطبعة البهية ، مصر ، سنة 1312 هجرة .

84 . **كتاب نسب قريش** : لأبي عبد الله بن المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر، سنة 1953 م .

85 . **الأدب في بلاد الشام - عصر الزنكيين والأيوبيين والممالك** : للدكتور عمر موسى باشا ، (الأستاذ المساعد في كلية الآداب ، بجامعة دمشق) الطبعة الأولى : دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة 1967 م ، والطبعة الثانية : المكتبة العباسية ، دمشق ، سنة 1972 م .

86 . **فن الحرب عند الصليبيين** : ر، سي ، سميل ، ترجمة : محمد وليد الجلاد ، دار طلاس للدراسة والترجمة والنشر ، دمشق ، سنة 1985 م .

87 . **المشتاق في اختراق الآفاق** : لأبي عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، المشهور بالإدريسي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، سنة 1994 م .

88 . **مسالك الممالك** : لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري ، مطبعة إبريل ، ليدن ، 1937 م .

89 . **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام** : لشهاب الدين أبو محمود بن تميم المقدسي ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، سنة 1994 م .

90 . **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** : لأبي منصور عبد الملك الثعالبي ، تحقيق : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة 1983 م .

91 . **الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين** : لأحمد بن على الحريري ، تحقيق : سهيل زكار ، مكتبة دار الملاح ، سنة 1980 م .

92 . **معجم البلدان** : لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، 7 أجزاء ، الطبعة الثانية ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، سنة 1995 م .

93 . **الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية** : لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادري ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، المعهد الألماني للآثار الشرقية ، قسم الدراسات الإسلامية ، القاهرة ، سنة 1961 م .

94 . **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - تاريخ لبنان والأردن وفلسطين** : لعز الدين أبي عبد الله محمد بن على بن إبراهيم بن شداد الحلبي ، عني بنشره تحقيقه ووضع فهارسه : سامي الدهان ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، سنة 1992 م .

95 . **بغية الطلب في تاريخ حلب** : لكمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم ، تحقيق : سهيل زكار ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 1988 م .

96 . **تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي الإسكندرية** : حسن عبد الوهاب حسنين ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، سنة 1990 م .

97 . صيدا ودورها في الصراع الصليبي : أسامة زكي ، الإسكندرية دار الطباعة والنشر ، سنة 1981 م .

98 . **عُكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة** : جلال سلامة حسني ، الطبعة الأولى ، دار الفاروق للثقافة والنشر ، نابلس ، سنة 1998 م .

99. SALADIN: Anne - Marie Edde, translated from French: Jane Marie Todde , Belknap press of Harvard University press , pages 704 , price $ 35 , 2012 .

100. An introduction to the history of western Europe: James Harvey Robinson, Ginn and company, New York.

101. The second crusade : Extending the frontiers , Phillip , Jonathan , Yale University press , 2008 , ISBN 0300112742 .

102. The Oxford History of the Crusades, Riley - Smith Jonathan, Oxford University Press, New York,1999, ISBN 0 - 19-285364-3

103. The Damascus chronicle of the crusades: extracted and translated from from the chronicle of Ibn al Qalanisi, H A R Gibb, Dover publication, U.S.A, 2002 . republication of the edition published by Luzac & compony ,Ltd.London